

## الفصل الرابع

### لقاء مع جورج جتسن George Jetson في بكين

إن مدن الصين اليوم هي مُحَرَّكَاتُ حَيَوِيَّتِهَا الاقتصادية. إذ تتنافس مدن العالم على المكانة، وفرص العمل، والنفوذ السياسي. أما الصين، فالمنافسة بين مدنها لهُوَ دَمَوِيٌّ.

يطالب مئات الملايين من المواطنين حكوماتهم بتسليمهم مزايا عصر الصين الذهبي بأسرع وقت مُمكن. غير أن الصينيين يعلمون، على الرغم من تفاؤلهم، أن المال الذي يَجُوسُ في البلاد قد يُدفن يوماً في باحات البيوت الخلفية، وفي ثنانيا الفراش، وفي حسابات في مصارف أجنبية في لَمَحَ البَصَر. وإن تقلباً اقتصادياً أو أزمة سياسية، إن وقعت، فقد تُتَهِى سَراعاً كُلُّ الخير الذي يَعمُّ الجميع اليوم. ويقول الصينيون إنهم يميلون، بِطَبائِعِهِم، إلى الأَدخار وإلى وضع خطط لأَيَّامِ سَوَداءٍ قد تأتي، لقناعتهم أن ثَمَّةً مجهولاً خبيثاً ربما يُطلُّ عليهم. والصينيون يَخْتَصُّونَ بأعلى نسبة ادِّخار في العالم، إذ يُخَبِّوْنَ، وسطياً، أربعين بالمئة من دخلهم.

فتفاؤل الصين في ظاهره، ثم سلوكها نهجاً لبناء سريع كبير إذن، هو مؤشِّرٌ قَلَقَها. وقد تعيش الصين طويلاً وتُعمَّر، غير أن ذلك يزيد من الاحتمالات الجيدة والسيئة في آنٍ معاً. فالاندفاع الصاحب الذي تشهده المدن الشرقية المُهمَّة من الصين لبناء كتل كبيرة ومهمة، والتي طالما أَحَبَّتْها الحكومة المركزية، إنما يُعطي سيرَ الأمور فيها الآن سيراً حسناً لهُوَ أَفضلُ ضمانٍ للمستقبل، وأفضل خيارٍ لها اليوم.

كانت مراكز المدن الكبيرة على طول الشاطئ الشرقي، قبل أن يصل الشيوعيون إلى السلطة، تُؤوي 90 بالمئة من صناعة الصين. وكانت شنغهاي وجوانجزهاو Guangzhou تمتازان بقوتهما. فقد حوَّل استثمارٌ يابانيٌّ كبيرٌ

في منشورية، في الشمال الشرقي للصين، في ثلاثينيات القرن العشرين، مدينة شنيانج Shenyang، التي كان اسمها مُكْدِن Mukden، إلى مركز صناعي رئيس. واليابانيون الغزاة، المذمومون بوحشيتهم، رأوا في الصين موقعاً لأفضل صناعاتهم. وقد استثمرت اليابان اليوم في الصين استثماراً نهماً. فتدفقت أعمالها عليها لأسباب مألوفة- هي إغراء أجور اليد العاملة البخسة والأسواق الكبيرة - ولاستغلال المصادر الطبيعية التي تنقص اليابان.

لم تعد مزايا المدن الصينية الاقتصادية وقوة جذبها للمستثمرين العالميين ذات شأن، بعد أن تولت الحكومة الشيوعية مقاليد الأمور. فكان للاعتبارات الإستراتيجية والسياسية الأولوية عندها. أما ماو، فكان يعنيه تنمية مراكز الصين الصناعية ونشرها في أرجاء البلاد. فثارت المنشآت الصناعية الأولى في منشورية المصدر الأول لخطط التنمية الصناعية الشيوعية في عهد ماو، إذ نُقِلَت الآلات والمصانع التي أحضرتها احتكارات الشركات اليابانية وسواها إلى مراكز صناعية مُخْتَارَةً جديدة بعيدة عن الشاطئ. فأُدْخِلَتْ بذلك مدن الصين القوية في سُبَاتٍ قَسْرِيٍّ دام عقوداً.

وعندما حَوَّلَت حكومة الصين في عهد دِنْج زِيَاوْبِنْج مَسَارَهَا، التَفَّتْ ثانية إلى مُدْنِهَا التي شَهِدَتْ الازْدِهَارَ مِنْ قَبْلُ. ربما كان المزارعون قد بدأوا الثورة التجارية يومئذ، غير أن حكومة الصين جَدَّتْ في دَعْمِ الإصلاح، وِبَرَعَتْ في ذلك أحياناً في مراكز المدن التي اختارتها.

إن كلية شنغهاي للعلوم الاجتماعية خير مثال على الموارد التي نظمتها. حيث ارتبطت الكلية بمجموعة مُعْجِبَةٍ من المعلومات مع الدوائر الداخلية في حكومة المدينة، جُلِّهِم خريجو جامعاتها. وارتَبَطَت الكلية بشبكة دولية من أهم جامعات العالم ومراكز أبحاثها. إنها مركز قسوي للمعلومات في الصين وفي أكبر مدنها. وستصبح شنغهاي، بمساعدة الكلية، الابتكار الذي أظهر الصين في أفضل حال لها؛ مَكُوكها الفضائي، ومعرض العالم، وموقعها المَتَمِّيز في آن معاً.

يَسْتَقْبَلُ المسؤولون في حرم الكلية، أمام شارع هواي هاي Huai Hai المزدحم في شنغهاي، عدداً كبيراً من كبار الشخصيات في كل يوم، فيهيئون قاعات استقبال على النحو الذي تكون عليه غرف الفحص في عيادات الأطباء المزدحمة. فيبتسم كبار الزوار الأجانب ويشيرون بالتحية إلى زوار كبار آخرين باستغراب وهم يسيرون في الممرات. وقد تركز أكثر من ستين صحفي أجنبي في شنغهاي في شهر واحد من سنة 2003م، كان معظمهم يعتمد على الكلية لكي يحصل على معلومات عن الموقع. وكان الباحثون مُجَبَّرُونَ، كواجب عليهم، تجاه بلدهم، ومدينتهم، ومعهدهم، أن يُلقوا محاضرات على كل مجموعة من القادمين الجدد. كانوا يقدمون لهم الخليط الأكاديمي المعتاد من وجهات نظرٍ ونقَدٍ حَصيف، يفي بغرض المؤتمرات الدولية الذي يطلبه حثيثاً علماء شنغهاي. ويدعوهم الأجانب الصينيين، من ثم لزيارة مؤسساتهم ومعاهدهم تعزيراً للارتباطات الأكاديمية في الصين. فكل مختص في علم الاجتماع ومسؤول مديني في العالم قد يرغب في الاطلاع على داخل الصين لكي يَسْتَوْعِبَ «المَرَق» الصيني السحري، ويأخذ نصيباً من مُشْكَلَاتِهَا، ويعود إلى وطنه ويقول إنه رأى مستقبل الكوكب، بِخَيْرِهِ وَشَرِّهِ. وتُرْسَلُ الكلية خيرةَ علمائها ليقيموا طويلاً في جامعات عُصْبَةِ آيفي Ivy League الأمريكية وشبكاتِها المنتشرة حول العالم. وعندما يعودون، يضعون شنغهاي في صورة أفضل اتجاهات الفكر العالمي عن سُبُلِ بناء المدن الحديثة.

إن كياتو Qiya Tu من خريجي جامعة هارفارد Harvard اللامعين، وهو الرئيس المساعد لكلية شنغهاي وأحد المفاتيح الرئيسية لطبقة الموظفين في المدينة. كان كياتو عضواً في هيئة العُصْبَةِ الزرقاء المعنية بتخطيط مسار مستقبل المدينة. درست اللجنة موقع المدينة في الثقافة، والمال، والصناعة. ودرست كيف يكون مخطط المدينة مفيداً لسكانها الحاليين والملايين الذين يأملون أن يحشروا أنفسهم فيها. وقد جالت اللجنة في بحثها مُدناً رائدة في أصقاع العالم. وعندما

سئل عما يمكن أن تتعلمه شنغهاي من المدن الآسيوية الأخرى؟ قال: إن المدن الآسيوية لا تهتم كثيراً أهل شنغهاي.

وقال: «لا تخطئوا، فشنغهاي تتطلع إلى أعلى. فلندن وباريس ونيويورك هم نماذج أفضل، وليست طوكيو. إننا نطمح إلى ريادة التجارة، والمال، والثقافة، وللمدينة أهدافها الطموحة».

«ولأن هذه هي الصين، وشنغهاي بالذات، فإن التوصيات، عندما تتخذ، تُتَمَن من فورها، وإذا لقيت قبولاً تُنفذ. لقد تعلّمت مجموعة كياتو من رحلاتها، على سبيل المثال، أن المدن الأكبر في العالم ترى قيمة في أبنيتها العتيقة التقليدية. أما الزائرون، فلا يرون في الحفاظ على كنوز شنغهاي من المباني القديمة أمراً مسلماً به، لا يقيده سوى الدمار غير المُبرّر للمباني القديمة الجميلة المبنية على الطراز الأوروبي الذي كان من قَبْل. وثمة مدن أخرى مثلها في أمريكا، وأستراليا، أو جنوب إفريقيا، حاكى فيها الأوروبيون مباني مُدْهم في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ففُنّ العمارة الذي كان قبل الحرب العالمية الثانية ينعكس في شنغهاي رغبةً بالارتباط بالثقافة الأوروبية قديمها وجديدها. حيث ملأت بيوت مُصمّمة على طراز قلاع، وقصور إنجليزية، وفلات فرنسية منطقة النخبة في المدينة. وتميزت المباني الداخلية في المدينة بأبراج الشقق الانسيابية والبيوت المستقلة على طراز حداثي في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته. كانت المخازن الكبرى في شنغهاي عصرية مثل المخازن في غيرها من الدول، وتباهت فنادقها الأجود بحيويتها وغرفها المزخرفة. ويقال: إنه قد كان في المدينة أكبر مجموعة مبانٍ زيّنتها الفنون في العالم، فتناقصت الآن كثيراً بسبب إعادة بناء المدينة وتخطيطها. فقد أزيلت نصف مباني المدينة التي أنشأت قبل سنة 1949م، أُزيل مُعظمها خلال السنين العشرين الماضية.

غير أن سحر المدينة لم يكن مصدره كله أوروبياً. فبقي كثير من المناطق المتهاوية القديمة في المدينة، تعيش في ظل حاضرة أعيد تصميمها لتناسب

النظر العلوي فحسب. وماتزال هناك في المدينة بضعة بيوت خشبية صينية الطراز، تبدو طبقاتها الثانية كالقمرات في سفن الصيد القديمة، بألواحها الخشبية الحمراء وسقوفها القرميدية التي تكاد تهوي. ترى الغسيل يتدلى من نوافذها الخارجية المنخفضة والمرتفعة، وترى سراويل من صوف طويلة وسخة وأخرى قصيرة رثة، تبدو أوسع من أن يرتديها صيني - تتدلى من أعمدة كأنها رايات جيش مهزوم، تُذكر أن الصينيين ليسوا سواء في أناقة المشاة في الطريق. وكأن هذه المناطق مُعلّقة بخيط.

فَسُوق دنجتاي Dongtai مثلاً، حيث دكان التحف الذي تملكه أُسرة لي، اتخذ قراراً بإزالته سنة 2004م. ويُرجح أنه سيُسْتَبَدَل بمجمع أسواق حديث كبير. وسيُنقل أصحابه إلى مَوْقِع في المَجْمَع الجديد يُخَصَّص للباعة المهجّرين. وبهذا يصبح دكانهم واحداً من مصادر كثيرة مثله تبيع قطعاً مقلدة للقديمة، ينقصها سحر النَّسَق القديم من دكاكين شنغهاي وأشباهها القديمة التي يسعى زوّارها إلى رؤيتها.

وإنه ليُسعدنا أن نرى بعض أجزاء المدينة تحتفظ بسِحْرِها القديم ويمكن إنقاذها. ولا بُدَّ لذلك من أن تقود المدينة الصين إلى تغيير أذواقها. فمعظم أجزاء البلاد عالقٌ حيث كانت المُدن الأمريكية في الستينيات، تُفضّل كلُّ جديد على مباني البيوت والمكاتب القديمة في المدينة، ولم تُهَبَّ لحماية القديم. وإن كان لشنغهاي أن تُحسِن استعدادها لجذب أكبر الأعمال إلى المدينة - وجعلها مَقَرَّها الإقليمي أو العالمي - فلا بُدَّ لآباء المدينة من العمل على أن تتأل شوارع شنغهاي القديمة التي تحفها الأشجار القديمة، والبيوت الفرنسية والبريطانية، والحي اليهودي العتيق، وبعض المستودعات القديمة ومباني رصيف الميناء، حمايةً فوريةً. وأن تصمم أبنية جديدة وتبنى في بعض المواقع، حيث لا بد من هدم المباني القديمة، على طراز تلك التي تهدم - وربما أكبر- لِتَقَام مكانها.

وقد كان قرار إجبار أصحاب البيوت القديمة على التباهي بها من التغييرات الأكثر براعة وإثارة للدهشة. لقد كانت تُفصلُ بيوت شنغهاي الأفخم عن حركة السير في الشوارع بجدران سميكة مُسَيَّجة قوِّية وعالية. وكانت النظرة في المدينة ترى حاجة البيوت والحدائق إلى مشهد عام، بينما نرى اليوم الطرقات التي كان امتداد حواجزها طويلاً يُشَبِّه حواجز القلاع قد صارت مَمَرَاتٍ للحدائق، والبيوت الفخمة التي لا تُرى من خارجها تُعطي المدينة ألقاً وجمالاً.

وقد سَنَّت الحكومة الصينية قوانين تُجبر المدن أن توسع المساحات الخضراء فيها. ففَعَلَت شنغهاي أكثر من ذلك، فَسَوَّت رقعاً كبيرةً من المدينة بَنَت عليها حدائق عامة ومنتزهات. فربما اضطرت، كي تحقق ذلك، إلى تسوية الأرض أولاً ثم حرثها. وقد حملت في شنغهاي، شحنات بعد شحنات من الأزهار المبرعمة، وزرعت في تربة سوداء جهزت لذلك حديثاً. وحُفِرَت البِرْك في أسابيع قليلة، وبُنِيَت غرف أنيقة في التلال للاستراحة. واقْتَلِعَت أشجار كاملة النُمو من تربتها في غابات بعيدة وزرعت في حفر ورُبِطَت جذوعها إلى الأرض بأسلاك تُشَدُّها. وتَسعى شنغهاي إلى أن تُحاكي لندن وباريس في حدائقها العامة.

وصَمَمَت المدينة أيضاً، بُعْيَةً حُصُولِها على مكانتها التي تَسْتَحِقُّها، أن تَتَخَلَّص من قذارة صناعة الجيل الأول ورائحته المنتنة. فلم تعد تُرَحَّب شنغهاي بالمرزوعات الورقية، والمُصْهَرات القذرة، ومصانع الكيمائيات، وعشرات من أصناف أُخرى من الصناعات التي يَنْبَعُثُ منها دُخَانٌ ورائحة.

ولا بُدَّ لِكياتو ولآخرين من مُخَطِّطِي شنغهاي الآن، بعد أن عادت إلى مجدها، من ترويض اتِّجاه عنييد في الاقتصاد الصيني لتركيز الصناعة في مدن الصين الشرقية المهمة. وإن شنغهاي التي يزيد ناتجها المحلي الإجمالي 80 بالمئة عن من يليها من المدن المنافسة هي الرائدة حتماً، وتخضع الآن لضغط مزدوج لكي تصعد إلى أعلى المستويات الدولية دون أن تمتص مالاً وطاقة، بعيدة عن بقية الصين.

ويقول تشن جيهاي Chen Jiahai مدير مركز أبحاث سياسة التنمية في كلية شنغهاي: كان ثلثا المقاطعات الصينية يعتمد، بين الخمسينيات والسبعينيات، على شبكتها الصناعية الخاصة في تزويد كل ما يحتاج إليه مواطنوها من مواد استهلاكية. وكان المتوقع أن تنتج المصانع بضائع أسعارها منخفضة، يستطيع الناس تحمّلها. غير أن الطبيعة المشتتة للصناعة الصينية قد أدت عملياً إلى أطراد في عدم كفاءتها، وعندما بدأ إصلاح السوق، جعل الشركات الإقليمية التي تملكها الدولة ضعيفة وغير حسيّنة. وعندما عاد الاستثمار إلى مدن الصين الساحلية، عادت الصناعة تتركز هناك من جديد، وأحدث اقتصاد السوق هوة بين القديم والجديد، بين الشرق والغرب، بإجبار مشاريع الدولة القديمة غير الفاعلة على التخلي عن أسواقها المحلية لمنتجات شرقية أفضل، تجعل المدن الشرقية الناجحة أكثر غنى وإغراء. وتغطي مدينة شنغهاي 5 بالمئة من اقتصاد الصين، وتجذب 10 بالمئة من الاستثمار الأجنبي في البلاد تقريباً. وتتجاوز نسبة نموها المعدل الوطني أيضاً بما يجعل المدينة الخيار الأول للناس والأعمال التي تبحث عن مستقر لها في الصين. كما يخلق تنافساً مكثفاً بين الآخرين للحاق بها.

### سحر التقليد والمحاكاة

تساءل جون جنتر John Gunther، الصحفي الذي شرحت كتبه ورسائله العالم للأمريكيين في منتصف القرن الماضي، «ما الذي يجعل امرأً مُسَهِّداً وآخر في حيوية ومرح: وما الذي يجعل امرأً فجعاً غراً ومنفعلاً وآخر هادئاً وقوراً مصقولاً ومُحَنِّكاً؟ إنه العمر؛ والجغرافية والتاريخ؛...إنها العلاقة بعمق البلاد؛ والتنوّع الديموغرافي؛ وعوامل خفيّة يصعب تفسيرها».

وعندما طرح جنتر هذه الأسئلة سنة 1947م، كان ينظر في الاختلاف بين وقار مدينة سانت لويس واستقرار مدينة كَنَسَس سِتي وفوضويتها. أما اليوم، فربما يسأل الأسئلة ذاتها عن نانجِنج Nanjing وبكين Beijing وجوانجْدُنْج

Guangdong ومئات المدن الصينية الأخرى التي تُبنى وتحاول أن تفعل ما في وسعها لتحاكي شيئاً من سحر شنغهاي. يريد قادة المدن حيثما كانوا إعادة بناء مدنهم لإيجاد أنفسهم لاعبين في اقتصاد السوق. وتكون النتيجة، إن سارت الأمور وفق المخطط، قيام أمة من بناة المدن المتحمسين وبسبب ذلك تحدث هزة في أرجاء العالم لسنين عدّة.

إن معركة البناء تُسلط الحكومة على المقاطعات، وتُسلط المقاطعات بعضها على بعض، وتُسلط مُدناً على مُدنٍ أخرى. تكون أسلحتها جرافات، وكُرات الهدم، وخلاط الإسمنت، ورافعات. كانت المصقات، والعلامات، وأغلفة المجلات التي تمجد الآلات القوية تمثل اللون الشيوعي وألقه في عهد ماو. أما الفارق الآن، فهو السعي إلى كسب المال. فإذا استعملت الآلات الكبيرة على نحو رأسمالي فاعل، فإنها تُنمي المال. وإنها حتى لو استعملت على نحو رأسمالي أقل فعالية، وفساد، وغير ملائم، فإن شبكات المالكين والمشغلين يستطيعون تأمين ثروات منها.

وعندما زار جورج بيترسن George Peterson الصين، وهو زميل في معهد المدن Urban Institute، والمعهد مؤسسة أبحاث ومنظمة دعم أمريكية خاصة للبحث في تمويل الحكومات الصينية لذلك النمو الهائل لبُنيتها التَّحتية، أبان لمسؤول صيني محلي عن عجبه لأن حكومته تخطط وتبني مراكز مؤتمرات ووحدات لتنقية المياه خلال الفترة التي يمضيها هو، أي بيترسن، في كتابة بحثه. ابْتسم المسؤول وقال لبيترسن: لا بدّ أنك تكتب بسرعة.

ويقول بيترسن، إن «المدن تبني بسرعة وتوازن ببساطة لا نفهمهما حتى تراها». فالمدن التي تُعدُّ متوسطة الحجم في الصين، تبني مراكز مؤتمرات ومعارض تفخر بمثلها برشلونة أو أُرْلانْدو. وقد أدى التنافس في بناء مراكز مؤتمرات أفضل وأكبر إلى المبالغة في حاجة الصين إلى تضخيم كل شيء. وفي المدن مساحات عرض شاسعة تملؤها الآن بمراكز عرض تضم مخازن بيع

التجزئة مثل كارفور Carrefour الفرنسي، وهوم دبو Home Depot عملاق بيع الأدوات الأمريكي.

وربما كانت لاس فيجاس Las Vegas وحدها، بين المدن الأمريكية، تُشبهه المدن الصينية في السرعة والمدى. ويبدو للناظر أيّ موقع إنشائي صيني كبيراً، مقارنةً بمعظم مواقع المنشآت الأمريكية، مثل معسكر للجيش يستعد لمعركة على عجل. حيث تتجول فرق البناء المنوّعة، التي ترتدي ثياب عمل حسب مهامها - ثياب عمل برتقالية اللون لعمال الكهرباء، وخضراء لعمال الحديد، وهكذا - يتجولون في الموقع في مجموعات منتظمة، يقومون بأعمالهم اليومية. ويبدأ العمل عادة في الثامنة والنصف صباحاً ويستمر حتى السابعة مساءً، ستة أيام في الأسبوع أو سبعة.

يأخذ زمن تقدم العمل في البناء كمقدار انحراف زمني في التصوير الفوتوغرافي. فيُقبل المستأجرون على أبراج المكاتب ومباني السكن قبل أن يتم بناؤها، ويشاهد المارة تقدّم البناء وأصابعهم تشير إلى أعلى لتُحصي عدد الأنوار المضاءة عند الغسق. ويشارك أوائل المستأجرين للمبنى مع عمال البناء الذين ينامون في الموقع، فتبقى بذلك كلفة البناء في حدودها الدنيا.

وترتفع المباني سراعاً، فما هي جودتها؟ وكيف تبدو؟ يقول مهندس بناء أمريكي يقيم عدداً من المشاريع الكبيرة في الصين: «كانت أجور العمال تبلغ عشرين بالمئة من تكاليف مباني الولايات المتحدة قبل سبعين أو ثمانين سنة، ويبقى ثمانون بالمئة منها قيمة المواد، ولذلك ترى المباني القديمة في المدن الأمريكية الكبرى جميلة. كان المهندسون والبنّاءون يستطيعون تحمل أجور العمل ليينوا واجهات خارجية من الحجر ويُعَنَوْنَ بزخارف الداخل. أما اليوم، فقد انعكست النسبة، فصار معظم المال يخصص للعمل. وهكذا صارت المباني اليوم أبسط.»

إن هذا التغيير الديناميكي هو مقياس ما حلَّ بصناعة الأثاث المنزلي في العالم. إذ يمكن أن يُستأجر عامل في الصين بأقل من دولار واحد في الساعة، يتمتع بمهارة واستعداد لازمين للقيام بما يتطلبه العمل، من زخرفة المباني الكبيرة المنبثقة بجميع الأحجام. ويقول مهندس نشأ في نظام مقتصد لمطوري المدن الأمريكية ومجالس مدنها: «إن تصميم بناء في الصين أشبه بالحلم، حيث تستطيع أن تضع تفاصيل في المبنى لا نحلم بها في أمريكا، تبنيه اليد العاملة المحلية على أفضل طراز».

فإذا كانت خطوط أفق المباني كما تبدو في سماء شنغهاي وبكين وشنزهن Shenzhen مثل مشاهد المدن من جتسون The Jetsons فذلك لأنها تستطيع ذلك.

فالارتقاء الحاد الذي يعيد تشكيل المدن الصينية بأي سعر مساوم سيبقي تدفق مد المهاجرين الراغبين من المزارع ومن المشاريع الحكومية المقفلة. ويمضي بناء مدن تنافس أكبر العواصم بشكل أسرع بوجود معين لا ينضب من اليد العاملة الرخيصة لتقوم بالبناء، وفي أوائل عام 2004م كان هناك ما يزيد عن ثلاثمائة بناء يزيد عدد طوابقها على خمسة عشر طابقاً قيد البناء في شنغهاي.

### أكياس نقد أسطوانية

كانت المباني الشاهقة التي أنشئت في مغامرة كبيرة لسوق الإسكان الملتهب في شنغهاي سنة 2004م أبنية شقق سكنية شاهقة بيعت على شكل ملكيات مشتركة. وقد أسهمت مضاربة شراء الشقق في ارتفاع السوق بين 20 و 50 بالمئة في سنة خلال السنوات الخمس الماضية، مما جعل سوق العقارات في شنغهاي أكثر الأسواق العقارية ارتفاعاً في العالم. وقد نشرت مجلة نيوزويك Newsweek في طبعتها الآسيوية قصة أسترالي يعيش في شنغهاي بدأ يبحث عن شقة مساحتها مئة متر مربع في خريف سنة 2003م. كانت قيمة أول شقة زارها \$120.000. وارتفعت قيم الشقق المشابهة خلال ثمانية أشهر تفقد فيها أربعين شقة حتى بلغت \$300.000.

ووجد أهل شنغهاي مدينتهم قد غدت، خلال طفرة الازدهار الاقتصادي هذه، وجهة سلاله جديدة من المسافرين، سُموا مافيا ونَزَّهوا the Wenzhou Mafia، ليس لأنهم مجرمون، وإنما بسبب التبجح الذي يميز أهالي زيجيانج ولعلمهم بزيارة مواقع البناء في شنغهاي يحملون هواتفهم الجواله وأكياس أسطوانية مليئة بالنقود.

بلغ شغف جيران شنغهاي إلى امتطاء موجة طفرة ازدهار المدينة حداً جعل صحيفة ونَزَّهوا إيفننْج نيوز Wenzhou Evening News تنظم جولات لشراء العقارات. واندفع المشترون يختطفون العقارات كما يختطف السائحون الآخرون الساعات والحقائب اليدوية. وكان حضورهم الظاهر، الذي يذكر بأن رفاهية الصين بين أيدي قادمين جدد يشقون طريقهم نحو مراكز السلطة القديمة، مؤشراً على أن على المسؤولين المحليين أن يدركوا أخطار السوق الموقّدة. وقد استطاعت الصحافة الرديئة واستيلاء المسؤولين أن تقنع ونَزَّهوا إيفننْج نيوز بوقف الجولات، غير أن ضغط القراء الموسرين في ونَزَّهوا أقنع الصحيفة بالتراجع عن قرارها بعد شهر فقال دونج ونيوان -Dong We nyuan من ونَزَّهوا إيفننْج نيوز للفايننشال تايمز Financial Times: إن الحكومة المركزية أمرتتا بوقف الجولات، وإنما العرض والطلب هو الذي يحكم السوق وليس التصرف الفردي أو التدخل الإداري. وقالت الصحيفة اللندنية إن الحكومة المركزية ومسؤولي شنغهاي لم يكونوا وحدهم قلقون من وصول مافيا ونَزَّهوا. فقد كان قلق كبار المستثمرين الأجانب نحو مُرغان ستانلي Morgan Stanley، ودويتش بانك Deutsche Bank، سنجاپوركابيتال لاند -Singapore Capital Land، وأستراليا ماكواري بانك Australia's Macquarie Bank من وصول الرأسماليين أكياس النقد الأسطوانية الذين ربما يفجرون الفقاعة فوق جداول حساباتهم.

وقد أكد آندي زي Andy Xie، وهو اقتصادي في مُرغان ستانلي، سنة 2004م أن «أملاك شنغهاي كارثة تنتظر أوانها».

هل كان ذلك تحذيراً للذهاب إلى أبواب النجاة؟ لا ليس للبنائين المحليين. ففي منطقتي طفرة ازدهار الصين، يعد إدراك وجود كارثة توشك أن تقع دافعاً لمضاعفة الاستثمار. وتصل نسبة الشقق الجديدة الخالية إلى 40 بالمائة في بعض المدن، وبرغم ذلك، يوالي البناؤون التقدم بمشاريع جديدة تتجاوز إنجازاتهم السابقة. وعندما تقع مشكلة، إن وقعت، ينتظر المالكون عودة أيام أفضل.

ولاحتاج كل أملاك شنغهاي ازدهاراً كي تتعش. فالركود المؤقت في الأسواق تكمن فيه أوقاته الطيبة. وإن الأزمة الاقتصادية التي تبعت فقاعة عقارات شنغهاي الأخيرة في التسعينيات خلّفت مئات المباني العالية في المدينة غير منجزة. كان بعضها ضحية ندرة المستأجرين، و كان بعضها الآخر نتيجة فساد مقاولي البناء الذين تزلفوا إلى مصارف الدولة أو المستثمرين المتهورين لتغطية المال اللازم لمشاريعهم، ثم تصرفوا بالمال في غايات خاصة بهم. فأنفق بعضهم المال في العيش الرغيد، وحوّل بعضهم الآخر المال إلى مشروعات أخرى، فشل كثير منها أيضاً.

وتستطيع الأملاك التي لا حياة فيها أن تُبعث في بلد أنقذ نفسه من موت اقتصادي. فمباني الأشباح في شنغهاي التي لم تكن تُقيّم بأكثر من ثمن الأرض التي تقف عليها والحجارة التي قد تُسترد منها، صارت الآن تُشغل. فعندما ارتفعت أسعار الشقق الفاخرة الجديدة في المدينة على نحوٍ فاق قدرة المشتريين، تحوّلوا إلى استئجار المباني التي كانت مية، حيث تبلغ أجرة المسكن الشهرية في الأبنية الجديدة الخمس أو أقل. فمن ترى ينتقل إلى السكن فيها؟ إن سكانها هم بعض المهاجرين الجدد. وإن معظمهم مازال يعمل بأجور «فقيرة». غير أن كثيراً منهم استطاعوا أن يعيشوا عيشاً أفضل، بأن يباشروا أعمالاً خاصة بهم تعتمد على جلب عمال جدد من قراهم.

إن ذلك نهج مألوف في أرجاء العالم، غير أن تحرك الصين إلى الأعلى يفوق بقية دول العالم النامي مجتمعة. وهذا جزء من الخليط الذي يجعل الصين

شديدة المنافسة على مستويات مختلفة. إنها تستطيع أن تطور مدناً عظيمة وتبنيها بينما تستمر في تلبية حاجة العالم بقواها العاملة الرخيصة في آن معاً. وبينما نجد أماكن أخرى في العالم تؤمن العمل الرخيص وهي تتسَلَّق سُلَّم التنمية درجةً درجةً، وتلهج بالدعاء مع كل خطوة كي لا تتعثّر.

### كيف هرب المارد من القمقم

ربما لا تكون شنغهاي، برغم كل عجائبها، التحوُّل المدني الأكثر إعجاباً في الصين. فهذه المأثرة هي من حق شينزهين Shenzhen حتماً، وهي مدينة قريبة من هونج كونج كانت حتى سنة 1980م مدينة صيد سمك يسكنها سبعون ألف شخص تحيط بهم حقول الأرز. ولم يكن في المدينة خدمة نقل عام في ذلك الوقت، وكان زائرو المدينة يتجولون فيها على أقدامهم أو على دراجات يستأجرونها من محطة القطار على تخوم المدينة.

غير أن كل شيء تغير سنة 1980م عندما وقع اختيار دنج زياوبنج Deng Xiaoping على المدينة لتكون من أوائل المراكز لتجربة رأسمالية السوق. ومنحت شينزهين اسم أول منطقة اقتصادية خاصة في الصين، أو -SEZ Special Economic Zone، وكأنما رفع القائد الأعلى للصين بضربة إلهية، أو ربما بضغط مفتاح على كومبيوتر في لعبة سم سيتي SimCity - مكانة مدينة ستصبح قريباً أكبر من باريس، أو مونتريال أو لوس أنجلوس.

اعتقد دنج أن موقع شينزهين قرب هونج كونج سيجذب الاهتمام والمال والتجارة من هونج كونج. وستتملئ شينزهين بالمستثمرين الأجانب الذين سيحملون معهم التكنولوجيا، والسلع التي تحتاج إلى تطوير، والعملية الأجنبية القيمة، التي يفضل أن تكون الدولار. وتستطيع الحكومة المركزية أن تأخذ زمام المبادرة بالتغيير في شينزهين. فحتى ذلك الحين، كانت الحكومة تلعب دور التابع، تُجَمِّل بالإصلاح كلَّ عمل تجاري يبدأ المزارعون به. أراد دنج أن تكون شينزهين تجربة مستقبل الاستثمار الحر في الصين.

لم تتوقع قيادة الصين في ذلك الوقت أن يطفئ الاستثمار الخاص في قلب مستقبل الصين. وإنما كان أملها أن تقدم بضعة مناطق رأسمالية علاجاً للبطالة، والجمود الاقتصادي، وخزائن الدولة الفارغة. وإن إصلاح الصين الذي طرحه دنج لم يتخل عن الماركسية. ولن يسلم السلطة إلى الذين هم خارج الحزب الشيوعي، الذي سيبقى في مكانته حارساً للمستقبل. هذا المرسوم، الذي حمل الصيغة الشهيرة: «اشترائية على الطريقة الصينية». قد حدده دنج بوضوح في خطاب شمل بذور تطور المستقبل ألقاه أمام المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي سنة 1982م.

يجب أن ننطلق من الحقائق الصينية في تطبيق برنامجنا للتحديث. سواء أكان ذلك في الثورة أم في البناء الذي ينبغي أن نتعلمه من البلدان الأجنبية ونفيد من خبراتها، غير أن التطبيق الآلي للخبرة الأجنبية ونسخ نماذجها لن يعود علينا بالنفع. لقد استقيناً كثيراً من الدروس في هذا المجال. ويجب أن تتكامل الحقيقة العالمية للماركسية والحقائق الواقعية في الصين، وأن نشق طريقنا بأنفسنا، ونبني اشتراكية على الطريقة الصينية - فذلك ما خلصنا إليه بعد مراجعة تاريخنا الطويل.

لقد ركز ماو على الطريقة الصينية، غير أن تحول دنج سمح «للطريقة الصينية» أن تتضمن استثماراً حراً طالما تستطيع الحكومة أن تبقى تطور شينزهين منضبطاً، فقد يتضمن أيضاً أثراً مفسداً تحمله الرأسمالية في خباياها. ولكي يحصل ذلك، قدمت منطقة SEZ مزايا فريدة ضمن حدودها. وقد حصل الذين جلبوا أعمالاً إلى المنطقة على تخفيضات ضريبية سخية. 5 فصارت هونج كونج من أغنى المدن في العالم بسبب الدور الذي لعبته كوسيط بين الصين والعالم الخارجي. وقد حققت شينزهين، كأول مدينة رأسمالية بطبيعتها في الصين الشيوعية، نجاحاً مماثلاً.

وجدت الحكومة أنها لا تستطيع استيعاب آثار الرأسمالية ضمن منطقة SEZ. لقد انفلتت مارد الرأسمالية من القمقم بسرعة حتى حاولت الحكومة في

الثمانينات أن تلجمه بحملة وطنية ضد «التلوث الروحي». وتكشف أن التلوث كان من النوع الاستهلاكي الذي ستعقد الصين آمالها عليه فوراً.

وليس ثمة نظير تاريخي لنمو شينزهين. وربما كانت شيكاغو أقرب شياً. لقد استغرقت تلك المدينة الواقعة في الغرب الأوسط الأمريكي خمسين سنة ليصبح عدد ساكنيها مليوناً. غير أن شينزهين لم تستغرق أكثر من عقد واحد، وبعد ربع قرن فقط صارت شينزهين مدينة تأوي 7 ملايين ساكن، كما أصبحت المدينة الرابعة في اقتصادها في الصين. وإن دخل الفرد واستطاعة المدينة الاقتصادية يقع بين أعلى النسب في البلاد.

استشعرت تنمية شينزهين المبكرة في الثمانينات والتسعينات بالدور الذي ستلعبه الصين فيما بعد في الاقتصاد العالمي. وقد استغلت هونج كونج، المركز الصناعي الرئيس شينزهين في الثمانينات للحفاظ على منافسة صناعاتها بالتحول إلى اليد العاملة الرخيصة في البر الرئيس، وبذلك حولت اقتصادها إلى اقتصاد يعتمد أكثر على التجارة والخدمة.

واختفت الصناعة من هونج كونج بسرعة كبيرة. وتوقفت مصانعها أكثر من عقد بعد أن ازدهرت في صناعة الأجهزة الإلكترونية، والألعاب، والأحذية، والنسيج. كانت الصناعة تغطي ربع اقتصاد هونج كونج سنة 1980م، وانخفضت سنة 2002م إلى واحد من عشرين. وبينما كان أربعة من كل عشرة من أهالي هونج كونج يعملون في المصانع، فقد انخفضت النسبة إلى أقل من واحد من عشرة. وانخفضت أجور العمال الذين استمروا في العمل في الصناعة في هونج كونج، مما أعطى اطمئناناً لخوف عمال صناعيين في أنحاء أخرى من العالم بأن الصين تستطيع فرض تخفيض على الأجور خارج حدودها. كانت مصانع هونج كونج مرة تنافس المصانع الصينية منافسة مباشرة أكثر من منافستها مصانع الولايات المتحدة أو أوروبا، لكن وسائل الاتصال المتطورة، والشحن، ونظم الاتصالات جعلت المسافة بين هونج كونج وشينزهين تعادل المسافة

بين شينزهين وأي مكان آخر. ويوازي تراجع هونج كونج الصناعي التراجع الصناعي في معظم الاقتصاديات المتقدمة في العالم، غير أن هونج كونج بدأ مبكراً أكثر وخطاً شوطاً أطول. وأصبحت الخدمات المالية والتجارية، وبخاصة تلك التي تتعلق بالوساطة التجارية والسياحية أقوى. يعكس ذلك الاتجاه أيضاً توجه اقتصاديات أخرى، بخاصة الاقتصاد الأمريكي.

وإذ اكتسب عمال هونج كونج الخبرة التي يحتاجون إليها للعمل في اقتصاد يحتاج كثيراً من الخبرات، بنى صناعيو هونج كونج مصانع في شينزهين وحولها، حيث يجول البر الصيني الرئيس ملايين من ذوي الخبرة الضعيفة بحثاً عن عمل. ووظفت المصانع التي أنشأها رأسماليو هونج كونج في النهاية عدداً من العمال يكاد يعادل عدد سكان هونج كونج كلها. وقد وجد 6 ملايين عامل في سنة 1994م أعمالاً في ثلاثين ألف مصنع في شينزهين وحولها يديرها ويمولها أشخاص من هونج كونج. وكان مستثمرو هونج كونج في نهاية سنة 2002م مسؤولين عن 60 بالمئة من 23 بليون دولار تدفقت إلى المدينة الجديدة منذ انفتاحها.

ولم يكن في مخططات الحكومة الصينية أن تجعل من شينزهين مغناطيساً يجذب المهاجرين الريفيين. فقد كان النظام الصارم الذي تفرضه الدولة لتنظيم حركة الناس سارياً عندما وافق دنج على تطور شينزهين. وبرغم ذلك، فإن اثنين من كل ثلاثة من عمال شينزهين أتوا من مهاجري الصين العائمين. وهم يتفقون مع نوع السكان أيضاً، مما يجعل شينزهين أكثر المدن شباباً في العالم، فمعظم سكانها دون التاسعة والعشرين من عمرهم.

ليس ثمة مدينة في العالم يطبعها الشباب مثلها. تأخذ الحياة الثقافية في شينزهين، من يستطيع أن يتحملها، شكل حدائق ألعاب. وتهتز المدينة في المساء على أنغام أدنى فرق الموسيقى الإلكترونية في الصين.

وقبل أن تجد شنغهاي الحال الذي يلائمها في أواخر التسعينات، كانت شينزهين مصدر إلهام جيل من الصينيين الشباب. وعندما أجرت عالمة الأنثروبولوجية كونستانس كلارك Constance Clark دراسة عن المدينة في منتصف تسعينيات القرن العشرين، وجدت أن أبناء العشرينيات الصينيين، الذين بلغوا سن الرشد في الوقت الذي كانت شينزهين تنمو وتزدهر فيه، رأوا في المدينة رمزاً لكل ما هو ممكن. كانت شينزهين المكان الذي تتحقق فيه أحلام المهاجر بالعمل والمغامرة والحب؛ وكانت المكان الذي يستطيعون اللجوء إليه هرباً من ضغوط الأبوين، والأسرة، والجيران، ويستطيع أن يَغْنَى بطريقته الخاصة. كانت المكان الذي يستطيع الشاب أن يعيد تكوين نفسه في أرض حيث تملي الدولة جميع احتمالات المرء. وعندما انتشر التلفزيون في جميع أرجاء الصين، كان لظهور شينزهين وقع الدراما الوطنية، فكان أشبه باستعراض ترومان Truman Show حيث ألهبت حياة سكان المدينة الجدد والمدينة نفسها القلوب والخيال في كل مكان.

### الفتيات العاملات في شينزهين، القسم 1

يفوق عددُ النساءِ عددَ الرجال في شينزهين، وهذا غير مألوف في الصين. في عام 2001 فقد كانت 3.5 مليون فرصة عمل تؤديها نساء من أصل 4.75 مليون فرصة عمل، وذلك حسب إحصاء رسمي. وتقول مصادر مستقلة: إن المسؤولين يعطون في إحصاءاتهم عدداً دون الحقيقة. ولا يمكن استغراب هذه الأرقام من وجهة نظر تاريخية معينة. فقد طلبت نساء شابات العمل في صناعات خفيفة منذ بداية الثورة الصناعية. وكان لصانعي النسيج الأمريكيين، في منتصف القرن التاسع عشر، الريادة في نظام مسكن العمال. كان أصحاب المصانع، يرون الشابات ملائمتاً لأعمال المصانع التي تتطلب صبراً ومهارات آلية بسيطة، وهذه صفات يقال إن الرجال لا يتمتعون بها. إن هذا النقاش التافه أعاد تشكيل قوة العمل عندما أتيح له ذلك. ولو كان الأمر صحيحاً، لكانت صناعة الساعات، وقطع الألبسة، وعمل الأقفال، ورسم المنمنمات الفارسية

كلها بأيدي النساء الشابات، ويمتدح أصحاب المصانع في قوة العمل النسائية الشابة سلاسة انقيادها وفي لحظات يكونون فيها أكثر أمانة. ويقول مدير وحدة الكترونية صينية عملاً فترة في الولايات المتحدة، وتايوان، وكورية، «إن الرجال يدخلون ويتقاتلون وتصعب إدارتهم، ويمكنهم إثارة المتاعب».

وبرغم الانطباع السائد عن أن العمال الصينيين طيعون، غير أن المديرين يخشون العمال الأكبر سناً، الذين يعتمدون على الراديكالية الجازمة التي أملتها الثورة الثقافية في رفع الشكاوى. والاحتجاجات في ازدياد.

ففي الوقت الذي تتسجم فيه قوة العمل النسائية الطاغية في شينزهين مع نموذج التنمية الذي يعمل بانسجام مع نخبة السلطة في الصين - المجموعة المتداخلة من قادة العمل والمسؤولين الحكوميين - فإن استخدام النساء المهاجرات في المناطق الصناعية الحديثة يسيء إلى مكانة الصينيين الأكبر سناً، الذين ما زالوا على رأس عملهم. وإذ يُجَبَّر عشرات ملايين العمال على ترك وظائفهم في المصانع التي تملكها الدولة، وملايين أخرى تستبعد عن الأجهزة البيروقراطية والعسكرية الحكومية المتضخمة، وتوضح إعلانات الوظائف الجديدة في مصانع البلاد الأكثر نشاطاً إن العمال المتقدمين في العمر - وبخاصة الرجال منهم - ليسوا مرغوباً بهم. وقد قامت إحدى منظمات حقوق العاملين في هونج كونج مؤخراً بترجمة إعلان عن وظيفة في أحد المصانع بثَّة تلفزيون شينزهين، جاء فيه:

شركة إكس إكس تي في تكنولوجي المحدودة (شينزهين)

XX TV TECHNOLOGY(SHENZHEN) LIMITED  
COMPANY

إعلان توظيف

إكس إكس تي في تكنولوجي شركة استثمار تملكها هونج كونج، تأسست في تموز/يوليو سنة 1992م، في جاردين ستريت، كوزوي بي، هونج كونج. Jardin

eStreet، Causeway Bay، Hong Kong. تنتج الشركة أجهزة هاتف ثنائية اللغة لها بشاشتين، وهواتف «خلية النحل bee nest» ومحولات. وقد حققت الشركة مستوى جودة إيزو ISO 9002 الدولية. ونعرض أجوراً معقولة، وبيئة عمل مريحة، وإدارة شفافة. وإننا نطلب موظفين في المجالات الآتية بموافقة الإدارة العليا وفي ضوء التوسع في ورشتي إنتاج.

### دائرة الإنتاج

عاملات نساء، يوجد 260 وظيفة شاغرة متوفرة.

#### الشروط المطلوبة:

- (1) تعليم ثانوي.
- (2) أن يكون العمرين سنة 18 و26 سنة.
- (3) أن تكون صحة مقدّمة الطلب جيدة، وأن تتّصف بالجدّ في العمل. وتعد الخبرة في المصانع الإلكترونية ميزة لمُقدّم الطلب.

#### الأجر:

- (1) الأجر اليومي 17 يواناً.
- (2) أجر العمل الإضافي: 1: 1.5.
- (3) مكافأة المواظبة على العمل دون انقطاع: 45 يواناً. عاملون رجال، يوجد 20 موقعاً شاغراً.

#### الشروط المطلوبة:

- (1) خبرة عملية مدة سنتين.
- (2) معرفة أولية بالإصلاح والصيانة.
- تعد رخصة الإقامة ميزة. الأجر: حسب المهارات.

إن البنات والشابات اللاتي يملأن مصانع الصين الجديدة يشكلن أيضاً قوة عمل تقلق بقية العالم. فخطوط الإنتاج في مصانع الإلكترونيات الاستهلاكية التي تجعل الصين الآن الصانع الرائد في العالم لعدة أصناف رئيسة، منها: أجهزة التليفزيون، معظم من يعمل فيها نساء. وإن هذه المصانع ضخمة جداً، يعمل في بعضها عشرات ألوف الموظفين.

وتستطيع نساء الصين الشبابات أن يَشغَلْنَ كثيراً من الوظائف في مصانع الأحذية، والثياب، والنسيج في البلاد، حتى إنهن قد يقوِّضن نظاماً اقتصادية كاملة. ويُتَوَقَّع أن تسحب معامل نسيج في جنوب الصين ملايين فرص عمل من عمال في مصانع أخرى خلال السنوات العشر القادمة، ويشمل ذلك أيضاً كثير من النساء في بلدان نامية أخرى. وتشكل الثياب والنسيج 6% من جميع صادرات العالم، وتتجاوز قيمتها 340 بليون دولار. فيصنع العالم النامي - ومنه الصين - الآن من الثياب والنسيج أكثر مما تصنعه الدول الصناعية، وفي بعض الأماكن الأكثر فقراً في العالم - مثل باكستان، وبنجلاديش، وسريلانكا، والهند، وتركيا، ونيبال، ولاوس، وكمبوديا - تغطي تلك التجارة حصة الأسد من عائدات التصدير وتشكل عادة مَصْدَر عدد هائل من الوظائف الصناعية.

كانت صادرات الصين من الثياب والنسيج إلى الولايات المتحدة في الماضي يحكمها نظام حصص تقسم السوق الأمريكية بين بلدان مختلفة. وقد تغيَّر كل ذلك سراعاً فألغت أنظمة تجارية دولية جديدة نظام الحصص وأعطت الصين تسديداً واضحاً على سوق الولايات المتحدة والعالم في كل مصنوعات القماش أو الجلد. وقد تمكنت الصين الآن من السيطرة على المناطق المحددة التي استطاعت دخولها.

ويقول نيل كيرني Neil Kearney الأمين العام للاتحاد الدولي للعاملين في النسيج والثياب والجلد الذي يضم 217 عضواً كجماعة منتسبة من 110 دول، عن خوف العالم من الصين. ويقول كيرني: إن حصة الصين من البضائع

التي تستوردها الولايات المتحدة من تسع وعشرين صنفاً من الثياب التي رفعت من الحصص (الكوتا) سنة 2002م تضاعفت ثلاثة أضعاف، بينما انخفضت الواردات من بقية دول العالم بمقدار 14%. وقد اكتسحت العلامات الصينية الشابات المنافسة في بعض الأصناف. فكانت صناعة ثياب الحمام تجارة جيدة في المكسيك والفلبين، فخسرت هذه البلدان ثلث تجارتها، بينما توسعت تجارة الصين سبعة أضعاف. كما كانت جواتيمالا وبنجلاديش وسريلانكا مناطق جيدة لصناعة القفازات، فانخفضت صادراتهم إلى الولايات المتحدة بمقدار الثلثين عندما دخلت القفازات التي تصنعها نساء الصين المخازن الأمريكية. كان نجاح الصين محدوداً طالما ضُبطَ نظام الحصص وصولها إلى السوق. ويقول كيرمي: «إن هذا يقدم صورة عما يمكن أن يحدث عندما ترفع جميع الأصناف من نظام الحصص».

ونجد الصورة مماثلة في صادرات الصين إلى الاتحاد الأوروبي، حيث تضاعفت تجارة الصين في كثير من أصناف النسيج مرتين أو ثلاثة وربما أكثر. إن المصانع الجديدة تصعب مضاربتها. فعندما بلغت الصين الأسواق التي لم يكن متاح لها دخولها من قبل، خفض المنتجون الصينيون أسعار السوق بمعدل 44%. وأجبرت الصين أوروبا على تخفيض الأسعار بمقدار 42%، لأن النساء الشابات القادمات من شينزهين يعملن جادّات، ساعات طويلة، وبأجر ضئيل.

### العمل الجاد لتحصيل المال

إن نمو شينزهين السريع جعل شوارع المدينة تزدان بفنادق خمسة نجوم، والدكاكين الفاخرة، والمطاعم اللامعة مثل فرساي، وصالات بيع سيارات بورشه، وأرصعة يسلكها رجال يحملون أكياساً بقبضات إيطالية، ونساء توسعت عيونهن بأدوات التجميل أو بالجراحة التجميلية وقد حشرت أوراكنهن في تنورات جلدية من تصميم لوي فيتون Louis Vuitton. ويجدر بنا أن نلاحظ أن تعاضم المال، والتباهي، والوتيرة ليست مجرد حواجز ضد الاستمرار، وإنما هي ثمارها.

وطالما أن شينزهين لم تجد موقعها كمركز للتكنولوجيا العالية، أو ممر للتكنولوجيا الإحيائية، فإن ثروتها ستبقى للطبقة العليا من بلدة مصانع ضخمّت كثيراً. إن الأمر كله هو بناء قوة عمل لن تجد لنفسها مكاناً، ولن تتمكن من التنظيم، وستبقى رخيصة طالما استطاعت ذلك، مثل جميع مدن المصانع التي تعتمد على النساء المهاجرات أولاً، ثم على الرجال ثانياً.

وعندما انتشرت تظاهرات الطلاب في أرجاء الصين، في ثمانينيات القرن العشرين، وأدت في النهاية إلى الاحتجاج والإجراءات الصارمة التي اتخذتها الحكومة في ساحة تيانانمين Tiananmen Square، كان عدُّ الشباب الصيني التحديّ الرئيس للنظام القديم أمراً طبيعياً. فعندما تتفكك الحكومات الحديثة، يكون الشباب هم الذين يفككونها. وما زالت الحكومة الصينية تفتح عينها جيداً على الطلاب، وما زال الطلاب يرفعون رؤوسهم مطالبين بالحوار والديمقراطية.

لا يُشكّل المثاليون في الحرم الجامعي الكتلة المتفجرة في ثقافة المال الجديدة التي تميل ميلاً طاعياً نحو شباب المدينة، وإنما هم الصينيون الأكبر سناً، مدنيون وريفيون، الذين حُرِّموا حقّهم بالاحترام والإجلال. واتّسعت دائرة الاحتجاجات بين هذه المجموعة. حيث ضمّت المسيرة الواحدة ثلاثين ألفاً من العمال على الأقل، يخرجون إلى الشوارع عندما توقف مرتباتهم، وعندما تعدهم الدولة مُنشقين، وتطردهم بمرتب تقاعدي مُبكر يدعو إلى السخرية. لقد أغفلت مصيرهم فيما مضى حكومة تناضل للتخلص من نَمر الإصلاح والنمو، صار في الآونة الأخيرة يُعالجُه، بحذر شديد، بعض أعضاء الحكومة الذين يحسبون للمستقبل ألف حساب.

وصلت رسالة إلى جيانج زيمين في تموز/يوليو 2001م، وكان ما يزال يومئذ الرئيس والقائد الأوحّد الأكثر قوة في الصين، فضربت الرسالة على وتر حساس عند الحكومة المركزية. كتبت الرسالة في الوقت الذي كان الحزب يفكر بجِد، لأول مرة، السماح للصينيين من القطاع الخاص بدخول الحزب الشيوعي. كتب

الرسالة المدير العام السابق لشركة الفولاذ التابعة للحكومة الصينية ومسؤول رفيع سابق لاتحاد العمال الصيني الذي تديره الدولة. لم يكن أيهما ليوحي بأنه مُنشَق، غير أن كلماتهما التي تهاجم التزام جيانج زيمين الصارخ باقتصاد السوق ما كان لها أن تكون أقوى:

لقد أصبح العمل سلعةً اليوم. ولايستمتع العمال إلا بقليل من حقوق الديمقراطية في المؤسسات، وحتى ذلك القدر القليل الذي ليس مضموناً أبداً.... يترك العمال مواقع عملهم فيُحَرَمون مزايا أقدميَّتْهم، مثلما يؤمرون. وقد فقد عدد هائل من العمال أعمالهم اليوم؛ ليس لهم من يلجأون إليه لوقف هذه الحيف الذي حلَّ بهم. وبعد تركهم العمل، تتدفق مجموعة من المزارعين الشباب لتحل محلهم. وعند مقارنتهم بالعمال في المدن، باستثناء المزارعين صغار السن، وذوي الأجر المتدني، وضعف علاقاتهم مع المشاريع، فإن شيئاً من أمور تعليمهم، ومهاراتهم، ورؤيتهم السياسية والشخصية لن يتحسن. وإن حال العمال في الأعمال الخاصة المحلية أو الاستثمار الأجنبي سيئة ولا تطاق، وليس فيها ضمانات.

تحرص الشركات الغربية التي تستعمل المصانع الصينية على التأكيد من أن منشآتها تطبق مقاييس التوظيف الإنسانية. وتقوم فرق من المفتشين بتفقد المصانع للتأكد من حسن الإنارة، والتهوية، وأن العمال لا يُكَلَّفون بالعمل في ورديات غير معقولة. وتعرف المصانع النظام جيداً وقد ابتدعت أساليب لغش المفتشين بسهولة، باستعمال المواهب ذاتها في الهجوم المضلل الذي طبق أمداً طويلاً في خداع مسؤولي الحكومة والحزب الشيوعي الذين يتفقدون المزارع والمصانع للتأكد من علو الإنتاج وأن الناس «سعداء». ويعني ذلك في المصانع إجراء عمليات أمامية وأخرى خلفية، تقدم منشآت نموذجية في مكان، وأخرى أقل نموذجية وأعلى إنتاجاً في مكان آخر. ويلج كثير من العمال بطلب العمل ساعات أطول، مما يشكل أفضل فرصة لهم للتقدم في نظام عمل ثابت فيه لا يكفي لتسديد الفواتير وإرسال مال لأولئك الذين يحتاجون إليه في البيت.

غير أن الأنظمة المزدوجة تستطيع أن تلبى حاجة المسرفين من أنصار التفكير الذين قد يحبطه الواقع. ميشيل مون Michelle Mone متعهدة قادمة من جلاسكو في اسكتلندا، التي أسست شركة لصنع صديريات سنة 1996م عندما كانت في عشرينيات عمرها، قد تكون واحدة من اللاتي جعلن عملياتهن الصينية تبدو أجمل مما هي حقاً. فشركة مون، واسمها إم جي إم إنترناشنال MJM International تتج ماركة أولتيمو Ultimo line of bras المشهورة بحشوة السيليكون التي تظهر من تلبسها أجمل. التفتت إلى المصانع الصينية النامية لتجميع خطوط الإنتاج لـ إم جي إم وتبقي الآن هذه المصانع أسعار المنتجات مقبولة حيث يباع صديري أولتيمو بما يقارب 35 دولاراً.

نشرت صحيفة ديلي ريكورد Daily Record الاسكتلندية في نيسان 2004م إعلاناً ملفتاً على الطراز اللندني - كمية كبيرة من العناوين الكبيرة، وطباعة باللون الأحمر، وصور في أوضاع مختلفة - عن زيارة قامت بها مون لـ دونجوان Dongguan، وهو مركز صناعي كبير آخر لا يبعد عن شينزهين، بعد أن نقلت إنتاجها إلى هناك من البرتغال. واعتمدت تغطية الديلي ريكورد Daily Record على الضغط الشديد، فنشرت عناوين تشد القراء بالطريقة التي تخشاه الماركات الغربية. وقد جاء في أحد الإعلانات الأكثر تشويقاً، «جنه استرليني واحد في اليوم. هذا ما تتقاضاه فتيات المعامل لتصنع الصديري الأكثر إثارة في العالم. وتذهب الريكورد إلى الصين لتكتشف القذارة الكامنة وراء البريق». جعلت مون عمل الصحيفة أسهل بملاحظات عامة أدلت بها بعد زيارتها للمصنع. فنسب إليها قولها: «ليس هناك أطفال تعمل في المصنع. ولا ساعات عمل غير معقولة. فالطعام فيها جيد والأجور عظيمة. إننا ندفع إجوراً تزيد عن المتوسط». أقامت مون أثناء زيارتها في نزل للعمال، ثم قامت بتقييمها المضحك. قالت: «إن العمال يعيشون في نزل.. رائع كأنه نزل للمسافرين Travel Inn. ففي إم جي إم يستطيع المديرون الذهاب إلى بيوتهم ليلاً ليريحوا رؤوسهم على وسائدهم

دون أن يقلقوا من أننا نستغل عرق العمال بأدنى الأجور». وامتدحت مون المصنع لأنه مجهز بأجهزة تكييف الهواء ويقدم وجبات لأسر العمال.

ويتّضح أن رؤية مون لم تكن كاملة. فقد دقت الصحيفة النظر في أحد المصانع التي تنتج إم جي إم وقالت، إن أكثر من ثمانية نساء يشتركن العيش في غرفة مزدحمة، وإن حرارة الغرفة في الليل ترتفع إلى ست وثمانين درجة فهرنهايت، وإن تكييف الهواء يقدم فقط للنزليات اللاتي يدفعن مقابلته من مرتباتهن التي تتراوح بين 50 و 60 دولار في الشهر. وإن معظم النساء اللاتي يعملن هناك أتت من المناطق الفقيرة في شمال الصين، وقد جندن للعمل بوعود ودية لا تمت إلى الواقع بصلة. وتُعطى العاملات عادة إجازة قصيرة واحدة في السنة في رأس السنة الصينية؛ يقضين معظمها في القطار الذي يحملهن إلى مواطنهن.

ولا تلبى وحدة تصنيع أولتيمو الحد المطلوب في أي من دول أوروبا الغربية أو الولايات المتحدة، غير أنها ربما كانت أفضل من كثير من المصانع الصينية، ويزداد الطلب على فرص العمل فيها. ويجدر القول إن الصديري القادم من الصين كان أحد المنتجات التي دارت عليها معظم النزاعات في التجارة الدولية. وأدّت العقوبات الأمريكية المفروضة على الصديري الصيني في أواخر سنة 2003م بالحكومة الصينية إلى التراجع عن صفقة لشراء ثلاثة ملايين طن من القمح الأمريكي. أما سوق الصديري العالمي، فإن عدم تصنيعه في الصين قد يعني هزيمة على أيدي الآخرين الذين يصنعون هناك.

## الفتيات العاملات في شينزهين، القسم 2

حددت إحصاءات الحكومة متوسط رواتب النساء العاملات في شينزهين، ومعظمهن في سن المراهقة، بـ 72 دولار في الشهر سنة 2002م. تقيم معظمهن في مهاجع، مثلهن مثل الرجال العاملين في المدن. وشمل إحصاء الصين سنة 2000م أربعة ملايين مهجع سكني في المدينة والمناطق المحيطة بها. وإن كل

ثمانية إلى اثني عشر من الساكنين يقيمون في غرفة واحدة مثل الحال في مصنع الصديريات. وربما تكون مجتمعات المهاجرات مدناً داخل المدن، حيث تؤوي عشرات ألوف العمال من شركة واحدة. وحري بأجراس العمل أو مواعيد وجبات الطعام أن تطلق الجماهير في مجتمعات الشركة بكثافة تضاهي ساعات الازدحام في أنفاق المدن الكبرى. وإن متوسط عدد ساعات العمل في الأسبوع سبعون ساعة، وإن نصف العاملين في شينزهين يعملون سبعة أيام في الأسبوع. ويحدد القانون ساعات العمل في أسبوع العمل بنصف ذلك، غير أن العمل الإضافي، سواء أكان طوعاً أم كرهاً، يعني مالاً إضافياً، كما يعني للكثيرين تذكرة مبكرة للعودة إلى البيت. فالنساء اللاتي يأتين للعمل في شينزهين يذهبن إلى موطنهن غالباً ليتزوجن، ولا يرغبن في الانتظار إلى ما بعد منتصف العقد الثاني من العمر.

إن كثيراً من النساء الشاببات يتركن العمل الذي أتت من أجله في المصنع عندما يدركن أن أجرهن البسيط يُستهلك في مصاريف تحول دون تقدّمهن في الغالب. وهكذا فإن مصانع الصين تؤدي على نحو غير مباشر إلى إحدى الصناعات الكبرى الأخرى في المدينة. وإن الشاببات اللاتي يتركن عملهن في الإنتاج يتلمسن طريقهن نحو نوادي موسيقا karaoke.

دع عنك جانباً أي صورة انتقيتها من صور النوادي الموسيقية من Lost in Translation or Duets. فهن يرين النوادي الموسيقية في الصين مثل السور العظيم بالنسبة لسياح الباحة الخلفية. إن حجم نوادي شينزهين تماثل حجم فنادق المؤتمرات، مثل نوادي بكين وشنغهاي وجميع المدن المزدهرة. وإن النقاط الرئيسية هي أن مئات الغرف في الداخل مزودة بشاشات من البلازما وأجهزة توزيع صوت رائعة. وتحجز جماعات الغرف، وتبدأ ألعاب الغناء والشراب. ويتحوّل مشهد جاك دانييل Jack Daniel مقلوباً رأساً على عقب ليصبح إبريقاً مكبوتاً من 7 أب.

وكذلك أمر النساء اللاتي يدرن المكان. فأكبر نوادي شنغهاي تستطيع استيعاب ألف امرأة. إنهن رائعات. يُعْنَيْن، ويجلسن إلى جانب بعضهن بعضاً، يطربن ويمزحن، وعندما يختلط الرجال ذوي الثراء، الشباب منهم والكهول، برشاقة وسلاسة بشابات لا يكون على شيء، فتشبهك العلاقة سريعاً. وتحتل فتيات نوادي موسيقا karaoke موقعاً رئيساً في تجارة الجنس في شينزهين، ولعله أقل نضجاً من فتيات الطريق، وأقل أماناً من مومسات المدينة. إن أقدار المغنيات توجّهن في أي من الاتجاهين.

قام فكتور يوان Victor Yuan الباحث الذي تدرّب في جامعة هارفارد والذي يدير مكتباً استشارياً يجري دراسات عامة للشركات التجارية والوكالات الاجتماعية باسم هورايزن ريسيرتش Horizon Research في بكين، قام بدراسة موسعة لتجارة الجنس في الصين سنة 2003م كجزء من جهد متعدد الجنسيات لفهم مصدر مشكلة الإيدز AIDS في البلاد. قال يوان: «إن كثيراً من الفتيات لا يرين في العمل في المصنع سبيلاً إلى التقدم. فالأجور منخفضة، وثمة نفقات لا بد منها عندما يعيشن بعيداً من مواطنهن. فإذا عملن ثلاث سنوات أو أربع في مصنع، فإن حياتهن وآمالهن لا تتقدم أبداً».

إن الشابات اللاتي يعملن في الدعارة يُحَقَّقْنَ ثلاثة أضعاف أجورهن في المصانع. ولا يقتصر عملهن على مشارب النوادي الموسيقية فحسب. بل إنهن يجلسن في نوافذ صالونات التجميل التي تفتح طوال الليل بانتظار لقاء مَدْفوع الأجر، وتذاكر للسينما مخادعة، ويتصلن بغرف نزلاء الفندق على أمل أن يجدن زبوناً راغباً. وإن أجهزة الهاتف المعلقة قد تواصل الرنين طوال الليل. فالفنادق الكبيرة هي بيوت دعارة كبيرة أيضاً. في تشرين الأول/أكتوبر 2003م، وأغارت الشرطة الصينية على فندقين يقطنهما الأثرياء في مدينة زوهاي Zhuhai شقيقة مدينة شينزهين، حيث ادعى المسؤولون أنهم اكتشفوا معريداً استمر في عريده هناك ثلاثة أيام بناء على طلب مديري فرق جنس محلية. وكان

المشاركون أربعمئة رجل ياباني، وهذا ما يغري الصينيين باعتقالهم، إذ يحمل ذلك غرضاً سياسياً. فالاحتقار السائد لليابانيين له مضمون جنسي قوي، حيث يُشَبَّه الغزو الياباني نفسه بالاغتصاب. وتعد القسوة الجنسية التي مارسها جنود اليابان مع النساء الصينيات، وبخاصة في مذبحة نانجنج Nanjing سنة 1937م، ما زالت جرحاً نازفاً ينوء الصينيون بألمه. فكانت الاعتقالات الأخيرة انتصاراً للروح الوطنية، غير أنها سببت صعوبة عملية. فقد اتخذت الحكومة إجراءات صارمة في مناطق حياة الليل وتجارة الجنس، ونضب معين السياحة من هونج كونج وتايوان واليابان، وإنما لبعض الوقت فقط.

كان مخطط اللعبة للنساء، في النهاية، هو العودة إلى قراهن، حيث يفتحن أعمالاً تجارية خاصة بهن، لإعالة أبويهن، ويجدن بالمال أزواجاً أفضل. يقول يوان «وليس ثمة من يسأل عما كُنَّ يفعلن بعيدات، فذلك لا يهم».

لا تتضمن تجارة الجنس في إحصاءات مكاتب الترويج الاقتصادي المحلية في المنطقة، وإنما تأتي الأرقام ذات الدلالة من مصادر أخرى. فقد بلغ عدد أولاد السفاح، سنة 2001م، من نساء عاملات وخليلات في شينزهين 520.000 في عشرين سنة.

وماذا عن العنف؟ يقول يوان إنه يكاد لا يجد ذلك. فالسوق لن تسمح به. والأعمال تحتاج إمداداً ثابتاً من النساء الجديرات، اللاتي يُعْتَمَد عليهن لتجنيد صديقات لهن من مواطنهن. فالعمال الذين يتعرضون للابتزاز لا يصلحون لتجنيد أحد. وإنما النساء هن اللاتي يقررن الحد الذي يُقَدِّمَنه للزبائن. بعضهن يغني فقط. وبعضهن يتحسس للمس. وهناك من ينضممن بسرعة إلى ركب الوطن.

غير أن صناعة الجنس في الصين لا تخلو من ضحايا. فالبلد كبير فيه كثير من وحشية غير منضبطة. وربما لانجد في صناعة الجنس في الصين محرمات نجدها في بلدان أخرى، غير أن ثمة محرماً خطيراً واحداً؛ فالرجال في الصين

يؤثرون الجنس بلا واق أو عزل ويصرون عليه، ويدفعون ضعفي ما يدفع للجنس المحمي وربما أكثر ليمارسونه. فليس بمُستغرب أن نجد الأمراض الجنسية تُحدث مشكلات كبيرة. فالأرقام الأخيرة تُقدّر عدد المصابين بالتهاب الكبد من الفئة ب بحوالي 120 مليون، والمصابين بنقص المناعة إيدز بحوالي مليون مُصاب. وتُحذّر الأمم المتحدة من أن يصبح عدد المصابين بالإيدز 10 ملايين سنة 2010م، وقد بقيت السلطات الحكومية صامتة حتى سنة 2004م، ولم يكن ثمّة حملات وقاية.

وثمّة أمل موجود. فقد لا يكون صدفة أن تأتي برامج الوقاية في وقت يزداد قلق الصين من التفاوت في الدخل بين المدن الشرقية المزدهرة وبقية مناطق البلاد. فصناعة الجنس إحدى الطرق القليلة القوية التي تعيد المال إلى مناطق الصين الفقيرة. ولاتوجد تقديرات رسمية لذلك، وإنما قياساً على حالات مماثلة في بلدان أخرى، فإن المبلغ يصل إلى بلايين الدولارات. ففي تايلاند، النظام الآسيوي الآخر الذي يتساهل مع الجنس، يرسل العاملون في الجنس 300 مليون دولار سنوياً من دخل المدن إلى الريف. وتعني هذه الأرقام في الصين أكثر للاقتصاد المحلي، ليس لأن عدد السكان أكثر بخمس وعشرين مرة فقط، وإنما لأن معظم المال الذي يدفع مقابل الجنس مال أجنبي، وهو المال الذي يحتاج إليه اقتصاد الصين.

وأعلنت الحكومة في أيار/ مايو 2004م عن برامج أشد لمراقبة انتشار نقص المناعة المكتسبة الإيدز ومراقبته. وتروج الآن الحملات العامة لممارسة الجنس «السليم»، التي تتضمن حرية الحصول على الواقيات الذكرية. ومما يقلق في الأمر أن الإعلانات لم تركز على منع الدعارة في المدن الشرقية وإنما استهدفت المناطق الريفية بالدرجة الأولى.

## مصانع مُشْرِقة ومدينة مُعْتَمَة

ليست كل أحلام شينزهين ورديةً اليوم. فقد وقعت المدينة تحت سحابة حملة طويلة لمكافحة الفساد شملت عدداً كبيراً من المسؤولين، كان كثير منهم متورطاً بخطط رشوة مقدارها مليون دولاراً. والمدينة مركزٌ لأعمال تجارية تقدر بمليارات الدولارات تُروِّج لِسِلْعٍ مُزَيَّفَةٍ. وربما كانت تجارة الجنس فيها الأكثر نشاطاً في الصين.

وقد صَوَّرَت الروائية الصينية ميان ميان Mian Mian وهي من المهاجرات المراهقات إلى المدينة في منتصف التسعينيات الجانب المعتم من شينزهين تصويراً حيوياً فاضحاً، إذ تروي قصصها تفاصيل الحشد اللامنتمي والمدمن على المخدرات الذي سقطت فيه. قالت ميان ميان في إحدى المقابلات، «أتى كثير من الضائعين إلى شينزهين من أماكن أخرى، وكانوا جميعاً يحملون بمال ينقذ حياتهم. وشينزهين مدينة قاسية، لا قلب لها. وليس ثمة شيء فيها اسمه صداقة. وليس ثمة صديق فيها».

وربما استطاعت سمعة شينزهين الملطخة القذرة بقدر ما كانت مُحَلِّقة يوماً، أن توجه بعض الاستثمار والمراكز الرئيسية للشركات إلى شنغهاي. فالمدينة الآن من أكثر المدن المتنافسة. غير أنها ما زالت مدينة رائعة، تفوق شنغهاي جمالاً. وإذا تجمع شينزهين قوة أسر عالمية لا تناسب حجمها. فهي نقطة عبور إلى دلتا نهر برل Pearl أكبر منطقة صناعية في العالم. ويأتي ترتيب شينزهين الآن سادس أكبر ميناء في العالم. وتقف على أرصفتها عشرات الرافعات العملاقة التي تعمل على مدار الساعة في تفريغ المواد الأولية التي تحتاج إليها الصين لبناء مزيد من المدن مثل شينزهين، ثم تعيد تحميل السفن بحاويات تملأ على أرصفة التحميل في أكبر تمركز مكثف للمصانع التي تنتج الإلكترونيات، والأحذية، والساعات، والمجوهرات في العالم.

غير أن بعض السلع القيّمة لا تشحن من ميناء شينزهين. فقد صارت المدينة مركزاً لتنمية التكنولوجيا العالية والتكنولوجية الحيوية في الصين، حيث تسافر منتجاتها بالبريد الإلكتروني على نحو أفضل من البحر. وهذا أيضاً تنافس مدني في الصين، فلشينزهين منافسان رائعان بين المدن القديمة التي تضم مؤسسات تعليمية ومراكز بحوث عريقة. وقد أرسلت فرق من شينزهين مؤخراً إلى مراكز التكنولوجيا العالية في أوروبا وأمريكا لجمع الخبرات وفرض اختيارهم بالقوة على صينيي ما وراء البحار. وقد استعادت المدينة أرضاً على الجبهة البحرية لإقامة رَحْبَة صناعية ذات تكنولوجيا عالية ب 250 مليون دولاراً. ويستطيع المهاجرون الجدد دعم خبرتهم بقوة عمل منخفضة الأجر من شينزهين، يصنعونها بأنفسهم، ويبنون ثانية صناعات تستطيع المنافسة عالمياً، ولن تكون من فراغ هذه المرة، وإنما فوق الماء.

وتفعل مصانع شينزهين للعمال الصناعيين في هونج كونج ما سبق أن فعلته شيكاغو من قبل، وهي المدينة التي نَمَت نُمُوً سريعاً. فقد روت صحيفة لوس أنجيلوس تايمز Los Angeles Times الفائزة بجائزة بولتزر Pulitzer سنة 2003م عن سلسلة مقالات نشرتها عن وول مارت Wal-Mart قصة شركة Second City's Lakewood Engineering & Manufactur-ing Co. التي تصنع المراوح المنزلية. كانت المراوح تباع قبل عشر سنين في المخازن الأمريكية ب 20 دولاراً. فطلبت وول مارت، وهي عميل مهم أن تبيع المراوح بسعر أقل. قالت الصحيفة إن كارل كراوس Carl Krauss يخفض التكاليف مع كل دورة. وقد أتمت (جعله أوتوماتيكياً) الإنتاج في مصنع الأجر الأحمر الذي بناه جده في الجانب الغربي من المدينة. وكان المنتج يحتاج إلى اثنين وعشرين شخصاً فصار يحتاج إلى سبعة أشخاص الآن. وضغط على مموليه ليحطموا أسعار القَطْع. فحمل هذا الشركة بعض الوقت فقط. فتخفيض سعر المراوح تخفيضاً كافياً حمل كراوس على إقامة مصنع في شينزهين، واستأجر

عمالاً صينيين مهاجرين يتقاضون خمسة وعشرين سنناً في الساعة. ويفترض ذلك أن وول مارت كانت سعيدة. وسنكتشف في الفصول القادمة الدور الذي لعبته الشركة في اقتصاد الصين.

قد تكون شينزهين انبثقت من عَدَم، وأتى عمّالها ومديروها من كل مكان في الصين، غير أنها - مثل جميع مدن الصين المزدهرة - شقت طريقها وأقحمت نفسها في حياة العمال وأصحاب المخازن في جميع أرجاء العالم.

### أين الصبّية؟

تعد الهوة بين الجنسين في شينزهين أحد جوانب التحول إلى حياة المدن. فمطالب مصانع المدينة تجعل النساء الشابات أكثر قيمة هناك. وإنما الصحيح هو على خلاف ذلك في جميع مناطق الصين الأخرى تقريباً، ويعطي هذا أيضاً مدن البلاد شكلها وأثرها على بقية العالم.

أرّخت إحدى الروايات الإخبارية الجديدة التي تثير الريبة عن الصين في السنوات الأخيرة لعدوان على المواليد الإناث يحرف السكان على نحو غير طبيعي إلى الذكور. لماذا؟ تُذكر تعاليم كونفوشيوش Confucianism والتقاليد الريفية في أسباب تفضيل الأسر الصينية الذكور، وذلك تحامل يسود بخاصة خارج المدن الكبرى. فاسم العائلة، والارتباط المهم بالأجداد، يحمله عادة الخط الذكري. لكن الأسباب الاقتصادية تثقل خيارات الأسرة. ويسهم في ذلك نظام الإيجار في الصين. فالأسر المزارعة تحصل على قطعة واحدة من الأرض، ولما كانت الفتيات اللاتي يتزوجن ينتقلن بحكم العادات إلى العيش مع أسرة الزوج، فإن الأسرة التي لديها ولد ذكر تتمتع بفرصة أكبر في نظام تخصيص الأرض. ويعطي الأولاد الذكور أبويهم فرصة أفضل في أن يكون لديهما من يخدمهما في شيخوختهما ويكون أقدر على الاهتمام بالمزرعة. أو هكذا هو الاعتقاد السائد. وإن تفضيل الذكور، على المدى البعيد، سيؤدي إلى هجر كثير من آباء القرية.

وإن ما يدعو إلى السخرية أن العمل في مزارع الصين ينتقل بازدياد إلى عهدة النساء، إذ يترك الذكور قراهم، وإن فرصة ترك الزوجين أبويهم بعد زواجهما أصبحت أكثر الآن.

وتعود هذه التبعات غير المتوقعة إلى سياسة تنظيم الأسرة في الصين. فقد وُضعت سياسة الولد الواحد لتُصحح ما كان التخطيط المركزي يعدة أحد أكبر أخطاء حكم ماو بحض الأزواج الوطنيين على تكوين أسرة كبيرة. وإن الدولة، التي شجعت بحماسة ضارية الأسرة الكبيرة في منتصف القرن العشرين، وعدتها السبيل إلى قوة الصين الصناعية وثقلها الجغرافي، غيرت وجهتها تغييراً جذرياً. وأصبح النمو السريع لعدد سكان الصين يعد، ربما بحق، أكبر خطر يهدد رفاهية البلاد في المستقبل.

فرضت الدولة منذ بداية 1979م أن لا يُنجب الزوجان أكثر من ولد واحد أو اثنين. ويعتمد ذلك على المكان الذي تعيش فيه الأسرة، وعلى ترتيب إنجاب الأولاد. فيُسمح لسكان المدن بإنجاب أكثر من ولد واحد إن كان الزوجان في زواجهما الثاني ويريدان إنجاب طفل مشترك. أما في الريف، فيسمح القانون للأسر بإنجاب طفلين، إن كان المولود الأول أنثى - أي إن لم يكن الطفل الأول الصبي الذي يتمناه معظم المزارعين الصينيين.

تتجب الأسر في الصين اليوم 118 صبياً مقابل كل 100 بنت. (إن النسبة الطبيعية في العالم هي 106 ذكور مقابل 100 من الإناث) ويقوم الأطباء، بالفحص بالموجات الصوتية، بأعمال غير قانونية وخطيرة، لتحديد جنس المولود قبل الولادة، وإجهاض الإناث. حيث تُفقد واحدة من كل سبع إناث في الصين، بالإجهاض، أو تقتل بعد الولادة، أو تُرمى بعد ولادتها. وقد أجرت هيئة الإذاعة البريطانية مقابلة سنة 2001م مع شين رونج Chen Rong، وهي امرأة تفرز القمامة في مقلب النفايات في بكين. فوجدت شين في أثناء تجولها خمسة أطفال إناث بين القمامة، وحملتهن إلى حيث تعيش في كوخ فيه غرفة واحدة، وتولتهن هي وزوجها بالرعاية.

وليس كل آباء البنات المفقودات في الصين يتمنون موتهن.. فقد عُرِضَتْ مئات آلاف البنات للتبني في السنوات العشرين الماضية. وقد صار تَبَنِي أكثر من خمسين ألف طفل، معظمهم بنات، تَبَنَتْهُمُ أُسَرٌ أجنبية منذ سنة 1991م، كانت خمس وثلاثون ألف أسرة منهم أمريكية. وإنك ترى أبوين من أوروبا والولايات المتحدة، تبنيوا طفلاً، يدفعون بهم العربات في المدينة الممنوعة من بكين، يلفتون الاهتمام بأطفالهم الصينيين الجدد. كما تعج رحلات شركة يونايتد إيرلاينز United Airlines بين بكين و شيكاغو بصخب الأطفال الصينيين وبكائهم في أقمطتهم بين ذراعي أمهاتهم وآبائهم الأمريكيين الجدد. وإن العدد المتزايد للأطفال المتبنين في الولايات المتحدة يُوجِدُ عدداً من السكان المعنيين عناية كبيرة بالثقافة الصينية، وهذا يبني جسراً بين الثقافات في المستقبل.

إن بعض المواليد من الإناث في الصين لا يسجلن أبداً لدى السلطات، لأن الأسر تدرك أن تسجيلهن سيحرمهم من فرصة إنجاب صبي. فقد كان تفضيل الصبيان في الريف طاغياً حتى أُجْبِرَت الحكومة على تغيير سياستها، لتسمح للأسر التي كان طفلها الأول بنتاً بإنجاب ثانية.

ولن تخفف سياسة الحد من عدد سكان الصين من سكانها لعقود كثيرة قادمة، ولن تُدْنِي عدد السكان عن بليون نسمة. فعندما تولى ماو أمور الصين سنة 1949م كان عدد سكانها 550 مليون نسمة. وسيرتفع العدد في سنة 2020م ثلاثة أضعاف ذلك الرقم، على أقل تقدير. وستوقف سياسة الطفل الواحد في النهاية خطر الزيادة الهندسية في عدد السكان. وبينما ترى بقية البلدان النامية زيادة عدد سكانها إرهافاً لقدرة اقتصادها في مدهم بأسباب العيش، فإن عدد سكان الصين يستقر في وقت تشهد فيه ثروتها الوطنية ارتفاعاً هائلاً.

ويزيد عدد الصبية والرجال على عدد النساء، اليوم في الصين 20 مليوناً وسيقل عدد الإناث والنساء عامة في الصين في العقد القادم 60 مليوناً إن كانت النسبة بين الإناث والذكور فيها طبيعية. وبلغت المجموعة الأولى ممن أنجبوا

طفلاً وحيداً سنَّ الخامسة والعشرين سنة 2004م، وسيكثر الغلط ويتعاظم في المجموعة التي ستليهم. ويسمي الصينيون العدد الفائض من الذكور فروعاً عارية bare branches. وقد أبدى علماء الاجتماع في الصين قلقهم من عدم التوازن الذي سيعرضها إلى عدم استقرار.

بيدى فاليري ام. هودسون Valerie M. Hudson من جامعة برجهم ينج Brigham Young في أوتا Utah وأندريه ام دن بور Andrea M. den Boer من جامعة كنت في كانتربري the University of Kent in Canterbury بإنجلترا، قلقهما في كتابهما The Security Implications of Asia's Surplus Male Population من أن الكثافة العالية للرجال التي تلوح في المستقبل القريب قد تؤدي إلى العنف. ويتركز خوفهما الرئيس من أن الرجال سيتجمعون بتزايد في عصابات من رجال، تميل تاريخياً إلى السلوك العدائي. ويخشون أن يؤدي نقص النساء إلى أنماط متزايدة من التفرقة الجنسية. وإذ تصبح النساء أكثر ندرة، يصبحن أعلى كعرائس في المقايضة وفي تجارة الجنس.

وقد قال باحثون، «لقد رأينا في الصين انطلاقةً للشورور، مثل الخطف وبيع النساء لتقديم عرائس لمن يستطيع أن يدفع الثمن، وندرة النساء تؤدي إلى حال يتزوج فيها رجال ذوي مزايا - كالمال، والمهارات، والتعليم - غير أن الرجال الذين لا يملكون هذه المزايا من فقراء وغير ذوي المهارات والأميين - لا يستطيعون. وهكذا ظهر فرع رئيس دائم من الفروع العارية من أدنى الطبقات الاجتماعية - الاقتصادية».

إن الآراء المطروحة ضاغطة، وإن ديناميكية الاقتصاد الصيني المتغير تقدم سيناريو بديل أقل عنفاً. أما الآن، بعد أن قلَّت النساء المناسبات للزواج، ويزددن ندرة مع مرور الوقت، بدأ صبية المزارع الفقراء يشعرون بالحاجة لتحسين فرصهم بتحسين وضعهم. فإنهم يغادرون البيت للانضمام إلى فرق البناء وخطوط

الإنتاج، عوضاً عن الانخراط في خلايا إرهابية أو جيوش سرية. وبرغم الآمال التي تعلقها الأسر على إنجاب الذكور والاحتفاظ بهم في المزرعة، فإن الشبان يهاجرون إلى المدن الصينية. ويعود كثير منهم إلى قراهم، وأكثرهم أولئك الذين لم يستطيعوا أن يتحملوا حياة المدينة. أما الرجال الأقدَر، فإن عدداً كبيراً منهم يبقى بعيداً. ويرسلون المال إلى موطنهم. وأرسل المهاجرون إلى أهلهم في سنة 2000م حوالي 545 دولاراً وسطيّاً.. إذا ضُربَ ذلك الرقم بـ 90 مليون عامل، وذلك الحد الأدنى من السكان المهاجرين، يبلغ المال السنوي الذي يرسل من المدن الصينية حوالي 50 بليون دولاراً. غير أن الأماكن التي خلفها المهاجرون وراءهم تكون مأساةً في الغالب، تؤوي أشخاصاً في عمر أصغر من عمر العمل أو أولئك الشيوخ الذين يقعدهم التقدم بالعمر عن الحركة.

### السباق إلى الذهب

تُشَبَّه بكين كثيراً بواشنطن العاصمة. فمركزا الحكم هذان يشتركان بأُبْهَةِ تتجلى في أبنيتهما العامة الضخمة غير المرتفعة. غير أن هذا التشابه قد لا يدوم طويلاً. فقد بدأت بكين تندفع إلى الأعلى، بعد أن أصابتها حمى ناطحات السحاب وانطلقت لترسم لنفسها خط أفق يحاكي خط الأفق المزدحم في شنغهاي. وتتطلع المدينة لأن ترسم لنفسها صورة أنيقة وبنية تحتية تستطيع أن تجذب الدولارات الأجنبية مثل أي مكان آخر. وليس الإقبال الشديد على البناء جديداً على المدينة، وإنما الجديد هو تَطَلُّعُها لكي تصبح أبنيتها بمقاييس الذوق الدولي. فشغهاي التي طالما تطلَّعت إلى جذب العالم، استقطبت بضراوة مهندسي العمارة الأجانب ليبنوا أبنيتها الضخمة. وآثرت الحكومة في المدينة العاصمة والعاملون في التنمية الحريصون على رضا الحكومة توظيف مهندسي عمارة صينيين في المشاريع المهمة.

وكانت النتيجة، أن صارت مُعظم الأبنية الكبيرة في شوارع بكين الرئيسية خليطاً بين ضخامة المرحلة السوفيتية وحب الصينيين للزخرفة. وتُجد مراكز التَسَوُّق في بكين ومجمعات المكاتب الحكومية تشبه مستودعات سلاح حُوِّلت إلى مطاعم. وتبدو الفنادق أشبه بعلب ضخمة مربعة الشكل تعلوها مطاعم دوارة، أو أسطح معابد، أو أقواس إسمنتية مقلوبة. وكل ذلك يتغير بسرعة. فالمدينة تستقطب الآن أشهر مهندسي العمارة في العالم. وسيكون في بكين قبل أولمبياد 2008م مجموعة جديدة من المباني الهائلة التي تعكس ذروة التصميم الحديث والهندسة. غير أن واقع الميزانية قد يفسد بعض هذه الخطط. فقد أحضرت بكين لبناء مدرج للألعاب المهندسين السويسريين جاك هيرتزوج Jaque Herzog وبيير دو مورون Pierre de Meuron الحائزين على جائزة بريتزكر الهندسية Pritzker Architecture Prize سنة 2001م التي تعادل جائزة نوبل في مجالهما. وسَيُقَرَّم المدرج العملاق أشهر الأبنية التي صممها المهندسان، وهي قاعات الفن الحديث في متحف تات في لندن Tate Museum التي صممها المهندسان من وحدة قديمة لتوليد الكهرباء على نهر التيمز Thames. وقد شُبه المدرج، الذي سيكلف 500 مليون دولار ويتسع لثمانين ألف مشاهد، بعش عصفور ضخم، وبكتلة من المعكرونة. وتحيط به شبكة تعارضية من الفولاذ منحنية برشاقة ومفتوحة فوق مركزها لترسل شعاعاً من الضوء الأبيض فوق المدينة. إنه مشروع فريد يهدف إلى إعطاء بكين مظهراً عالمياً سابقاً لعصره. غير أنه ليس مشروع البناء الأكبر في بكين. فتلك المكارم ستكون في بناء المسرح الوطني، بكلفة 700 مليون دولار، الذي يصممه سوبرستار فرنسا المثير بول أندرو Paul Andreu. لقد صمَّم مسرح بكين ليكون تجمعاً لمسارح ترقد تحت قبة هائلة من الزجاج والتيتانيوم. تجثم كلها فوق بحيرة اصطناعية فتعطي انطباعاً أنه مسرح عائم، وهناك درج متحرك في المدخل يشعر رواد المسرح أنهم ينزلون تحت الماء.

أما المبنى الجديد لشبكة التلفزيون الوطنية الصينية فهو ربما كان العمل

الهندسي الأكثر أثراً وشهرة في العالم. فهو برج ليس كالأبراج- إنه بناء ان متصلان ببعضهما، يرتفعان 760 قدماً في الهواء على أرض مساحتها 5.7 مليون قدم مربع. لا يشير تصميم كولهااس Koolhaas إلى السماء وإنما يُوَظِرُه ضمن حلقة مستمرة حادة الزوايا من الزجاج والفضة. وقد صُمِّمَ المبنى ليذهل من يراه، ولا شك أنه سيفعل. وهو من أول الأبنية التي تقف في المكان الذي وقع عليه الاختيار ليكون أحدث مركز حضري في بكين- وسمي المنطقة التجارية المركزية الجديدة - وسينضم إليه ثلاثمئة بناء كبير آخر مع اقتراب أولمبياد 2008م.

وعندما زار روبرت آيفي Robert Ivy مدير أركيكتشرال ريكورد Archi-tectural Record مجلة العمارة الأمريكية الأولى بكين، كان عليه أن يعيد تحديد مفهومه للممكن. قال آيفي، «إن الأرقام تجعل العقل لا يتردد. وإن ملايين الأقدام المربعة من البناء الجديد تجعل بكين أكثر مناطق البناء ازدحاماً على وجه البسيطة. حيث يُبْنَى ألفا مبنى شاهق، في تركيز لهندسة العمارة، وتصميم مدن، يجعل برلين تبدو مقدمة فقط».

ومثلما هو حال شنغهاي، والمدن الصينية الأخرى، فإن فن العمارة المعاصر يعلو على أنقاض الماضي، وغالباً ما يكون ذلك نتيجة تدمير قسري. كانت جيرة بكين التقليدية، وأزقتها القديمة، تشكل معظم المساحة المأهولة من المدينة طيلة قرون عديدة. حتى يعود تاريخ بعض البيوت إلى سنة 1300م. وتبدو الأبنية من خارجها متاهات من الممرات، والبوابات، والأبواب. وتجد في الداخل تجمعات متزاحمة من البيوت، لمعظمها باحات داخلية.

وبينما يناضل المحافظون على التراث لإنقاذ المناطق القديمة، تجد سكان تلك الأزقة أنفسهم لا يطمحون إلا بالهرب من بيوتهم القديمة، الضيقة، الباردة، التي تعصف بها الرياح، ويعدون لها بيوتاً خربة لا تتوفر فيها الشروط الصحية. وبينما تتطلق الأبنية الجديدة، يطلق منشئوها حشود الباعة إلى شوارع المدينة ومحطات الحافلات والقطارات. وتستضيف مراكز المؤتمرات المعارض العامة

المجانية، وتتباهى بلباقة ممتلكاتها الجديدة. وينتشر الوكلاء بوجوههم المشرقة في كل مكان، يلوحون بكتيبات دعائية براقعة عن المشاريع المقبلة، وخرائط للمناطق الجديدة المجاورة للمدينة حيث سيصل قطار الأنفاق قريباً، وصور مرسومة بالكومبيوتر لداخل الأبنية: بيوت صينية حديثة أعطيت شكلاً مثالياً بنوافذ عريضة، وخطوط تلفزيون سلكي، وتدفئة، ومياه ساخنة، وتكييف هواء، وغسالات، وبرادات، ومدافئ على الغاز، وزوايا جميلة مزينة بكنوز أثرية. وربما كان هناك في البناء سوبرماركت، وباحة صغيرة للعب التنس، ومكان للجدة كي تُمارس التاي تشي tai chi. وهناك وعد غير ملموس يأتي عند ترك جيرة قديمة. فالأبواب تقفل بحذر في البنايات العالية، وللشقق في بكين بابان من الفولاذ وثلاثة أقفال قوية.

ويصعب على أهالي بكين أن يروا حال بيوتهم القديمة في أحيائها الضيقة إن جُددت، كما حدث في المناطق القديمة في أوروبا، وبخاصة عندما يخضع المشترون المحتملون لفيض لا ينضب من الرسائل التي تناديهم لهجر بكين القديمة. وربما أنقذت بعض المناطق المجاورة القديمة، وإنما سيمحي معظمها. إذا أرادت بكين أن تتفوق على شنغهاي في حداثتها، أي إنها تريد أن تبرز طوكيو ونيويورك ولندن أيضاً. وأي مكان سيتسع لبناء يضم دورة مياه عامة واحدة، وأكواخ عمرها سبعمئة سنة؟ كما يصعب على المدينة أن تقف في طريق المنشئين من أصحاب المال، وبناء الطرق، ودوائر الحكومة التي تعمل على إزالة الأحياء القديمة. وبخلاف الدول الديمقراطية، ثمة عدد قليل من لجان المواطنين، أو الأعضاء الناشطين في مجالس المدينة، أو المحامين المستعدين للتدخل لحماية الأبنية القديمة.

ولعل الطريقة التي أُجبر بها الناس على إخلاء بيوتهم كانت أهم عندهم من الحفاظ على المباني القديمة التي أخرجوا منها؛ لقد تمت بسرعة، وعنفاً، وأعطوا تعويضاً زهيداً. وقد وصف لي يونج يان Li Yong Yan، وهو كاتب يقيم في

بكين ويهتم باقتصاد الصين، طريقة تطوير المدن الصينية بأنها «Compitalist» أي مزيج من طريقة الحكم الشيوعية الرسمية المتحكمة وانتهازية اقتصاد السوق.

إن الصورة التي رسمها لي Li لتجديد المدن تجعل منشئ العقار التجاري الحقيقي يعرف أبنية المدينة التي تستحق إعادة البناء، بأنها ربما تصلح لمجمع أسواق (مول). ويحمل الفكرة إلى لجنة المناطق البلدية المحلية، حيث يحصل على رخصة استعمال الأرض مقابل إيجار. ولما كانت دولة الصين تملك كل الأرض، فإنها تحدد سبب استخدامها وثمرتها.

وعندما يرضى المنشئ المسؤولين، تأتي البلدوزرات بعد شهر واحد. وتعد الإنذارات، وتأتي فرق العاملين لترسم على الجدران دوائر كبيرة إشعاراً بأن الدمار وشيك، ويُعرضُ تعويضٌ تحدده الحكومة على سكان المنطقة، إنه تعويض غير قابل للتفاوض. يقول لي Li، ويُقطع المياء بعد ذلك عن تلك الأحياء، وكذلك الكهرباء، ويأتي رجال أشداء ليحرجروا السكان عنوةً. وإذا أخذ النزاع بُعداً خطيراً، تدخلت الشرطة إلى جانب الحكومة وعمّلت على إخلاء البيوت. يقول لي: «عندما كانت الصين تمارس الاشتراكية قلباً وقالباً في الماضي لم يكن ثمة تطوير تجاري. أما الآن فإن تطوير العقارات التجارية ينتشر انتشار النار في الهشيم في جميع أرجاء البلاد. والحكومة تجبي بلايين الدولارات من إيجار الأرض. وقد سُددت جميع سبل التفاوض والمخارج القانونية في وجه «الصينيين القدامى» الذين لم يكونوا يوماً في قاعة المؤتمر، من أجل الحفاظ على الموارد.

لأثقل ملكية كل الأراضي من شخص إلى آخر بالحد الأدنى من اللباقة القانونية التي تعطي مهلة شهر. فقد أحصت الحكومة الصينية 160.000 حالة مصادرات احتيالية سنة 2003م، وقد تضاعف هذا رقم عن السنة السابقة، مع ارتفاع حرارة الحمى الاقتصادية في الصين. وربما ترى الصين لزاماً عليها أن تعيد تشكيل مدنها كي تستطيع المنافسة في الاقتصاد العالمي، ولكي تفوز في

هذه المنافسة عليها أن تتخذ موقفاً شرساً ممن يعترض طريقها . وعليها أن تجعل الأشخاص المناسبين أغنياء .

لقد خَلَّفت ممارسات الاستيلاء على الأرض مقاومة لا يستهان بها جعلت الحكومة الصينية تتريث في الأمر . وقد أخذ الاحتجاج أحياناً شكل مسيرات جماعية . حيث تَجَمَّع عشرة آلاف متظاهر في بكين في صيف سنة 2004م . وفي بلد لا تتوانى عن عقاب المتظاهرين وأسْرهم، أثار الاستيلاء على الأرض شكلاً آخر من الانشقاق بالانتحار على رؤوس الأشهاد . فيأتي كثير من المضطهدين إلى الأمكنة الشهيرة في بكين، مثل ساحة تينانمين Tinanmen Square والمدينة الممنوعة Forbidden City لإعلان تصريحاتهم الأخيرة . سار مزارع في الخامسة والأربعين من عمره اسمه زهاو شنجليانج Zhu Shengliang بهدوء في أيلول/ سبتمبر 2003م، إلى النقطة التي تلتقي فيها بوابات القصر الإمبراطوري القديم في الساحة، وجلس، مع زوجته، تحت الصورة الكبيرة لماو تسي تونج التي مازالت معلقة على جدران الحرس القديم وفي القاعات الكبيرة للحكومة الشيوعية، وفوق ضريحه، التي تصور ماو تسي تونج تعلو وجهه نصف ابتسامة . صب زهاو البنزين على نفسه ثم أضرم النار .

إن التضحية بالنفس عمل يائس يعبر عن احتجاج، وله معنى خاص في آسيا البوذية . تعرف العالم الغربي عليه في الستينيات أثناء حرب فيتنام عندما أضرم الكهنة النار في أنفسهم، ثم في الآونة الأخيرة في سنة 2001م عندما أقدم أحد الشيوخ من أتباع فالون جنج Falun Gong على إحراق نفسه قرب المكان الذي جلس فيه زهاو نفسه . إن التضحية بالنفس هي في التقاليد تضحية، يأمل الضحية فيها أن يحدث تغييراً عاماً للذين يعانون . وقد تكون رمزاً قوياً لفشل القيادة، وهي من ثم تضحية خطيرة . إن زهاو الذي بقي على قيد الحياة، رغم فظاعة بقائه، سافر إلى بكين من الريف في مقاطعة أنهوي Anhui ليحتج على إجبار أسرته على الإخلاء .

كان هذا التصرف مصدر إلهام المحتجين الريفيين الذي عانوا مصيراً مماثلاً. ففي محاولة أخرى للانتحار في تشرين الأول/ أكتوبر التالي، في العيد الوطني للصين، ألقى أحد مواطني بكين بنفسه من أعلى جسر مشهور داخل المدينة المحظورة. حقق الرجلان بعض ما كانا يتطلعان إليه، ففي الأشهر التي تلت، قام متظاهرون من جميع أرجاء الصين بمسيرات يومية تقريباً في أكبر موجة احتجاج عام عرفتها الصين منذ احتجاجات ساحة تينانمين سنة 1989م. طالب الجميع التراجع عن الإخلاء القسري. وتتوقع جماعة مراقبة حقوق الإنسان أن «تنظيف المواقع الجديدة في بكين لإقامة الأولمبياد ستبقى نقطة الوميض». وتنفيذ تقارير مراقبة حقوق الإنسان أن الحكومة استجابت، حتى الآن، بقسوة متوقعة، إذ اتُّخذت إجراءات صارمة ضدَّ المتظاهرين، وسجنت كثيراً منهم، ومنعت عدداً كبيراً من المحتجين من ركوب القطارات المتجهة إلى بكين، وبلمسة مأساوية ساخرة أصبحت تعد انتحار المحتجين جريمة.

ويلبي الدمار في بكين متطلبات الهيئة الوطنية التي يملها تسليط الأضواء على أولمبياد 2008م. أما بقية أرجاء الصين، حيث تبدل القيادة الوطنية جهوداً كبيرة لترسخ جديتها في رفع معاناة الناس العاديين، فتصطدم مصالح المسؤولين المحليين، الذين يريدون حصتهم من الثروة والمجد، مع برامج القيادة الوطنية في هذا المجال. وإن إجراءات مكافحة فساد المسؤولين المحليين ضعيفة حتى أن فرصة وقوع المسؤولين المحليين في قبضة مكافحة الفساد لا تتجاوز واحداً في المئة. وقد تكون مكافحة المسؤولين المحليين مرتفعة. إذ يستطيع أولئك الذين يتمتعون بسلطة فسخ إيجار أرض تملكها الحكومة أن يتوقعوا استرداد نسبة من المبلغ تعادل 30 بالمئة مما يدفعه المنشئون للحكومة لاستخدام الأرض. وغالباً ما يدفع بالبيوت وسواها من أسباب الرفاهية إضافة إلى ذلك.

وقد ألقى فو وينجوان Fu Wennjuan، نائب وزير الإنشاء، اللوم على الحكومات المحلية في تدمير نصف المدن الصينية ونقل سكانها إلى أماكن

أخرى، إذ قال لصحيفة تشاينا ديلي China Daily إن «بعض مشاريع الإسكان الإقليمية تجاوزت النمو الاقتصادي المحلي وطلبات المحليين أيضاً». ولم تستعمل بعض المنشآت العامة في المدن نتيجة لذلك، وذهبت الأرض وذهب المال الذي أنفق هباء منثوراً. وتحرض المشكلات السلطات المحلية التي تقترض المال لأعمال البناء تلك.. بما يؤدي صدق المجتمع برمته».

وأبدت الصين فيما مضى استعداداً لتحمل أي استياء تثيره خططها للتجديد لبناء سد المضائق الثلاثة Three Gorges Dam، وستضطر الحكومة الصينية إلى نقل حوالي مليوني شخص ريفي ومدني على حد سواء. وقد قابلت الشرطة وقوات الجيش الشعبي الأفراد والجماعات الذين احتجوا على بناء السد بشدة. فتنمية الصين، ومصير أولئك الذين يحرضونها، تعتمد كثيراً على تحرير قيمة الأرض الموجودة تحت بيوت مواطنيها، بما يسمح للمظلومين أن يقفوا عقبة أمام المستقبل. وعندما يتنافس العالم مع الحضور الصاعد لمدن الصين وقوة الآلة الصناعية لمدنها، فإنه يتنافس مع حكومة تستطيع أن تقود الحداثة بكل ضراوة.

أما الفوائد التي يجنيها الشعب الصيني فقد تسوغ طرح الحكومة، أو تبرر إيدانها. فمهما يكن من صالح للصين، فإنه يجدر بمنافسي الصين أن يأخذوا في اعتبارهم الاتجاه الذي يتخذه لاعب عالمي يدعم تصميمه العنيد على التقدم بقبضة من حديد. كما يجدر بالمنافسين أن يأخذوا في اعتبارهم أن التطبيق الفوضوي للديموقراطية المتأنيبة - حيث المساومة تبطئ وربما توقف مشاريع تسمح أنظمة قوية الإرادة بتقدمها - حري به أن يعزز أو يفترق من عضد القوة التجارية للمدن الأكثر انفتاحاً.

### مزید من العصير من فضلك

لا يغير تجديد الصين مظهر المدن على طول الشاطئ الشرقي، وفي مراكز مدنية داخلية مختارة تفضلها الصناعة والمنشئون فحسب، وإنما يغير طريقة استغلالها لطاقة الكوكب.

إنك عندنا تتجول في نانتونج Nantong، وهي مدينة تضم 7.5 مليون نسمة، ولا تحمل إلا القليل من بريق شنغهاي، أو بهاء بكين، أو ازدحام وينزهاو، لا بد لك أن تذهب إلى المخازن الكبرى في وسط المدينة. تجد هناك باعة في قسم الأجهزة الإلكترونية المحموم، حيث تباع مكيفات الهواء، والسخانات المنزلية، يقودون الزبائن إلى قسم كامل لسخانات الماء بالطاقة الشمسية التي توضع على سطوح المنازل.

وتبدو السخانات كصفوف من مصابيح فلورسنت، مُلأت بالماء بدل الغاز. وتدفع الشمس الماء في الزجاج، بما يخفف معظم الثقل الذي يحمله سخان الماء الكهربائي المنزلي. وإن الأجهزة المعروضة في المخزن هي إرث تكنولوجي صمّمه علماء تكنولوجيين صينيين سنة 1978م في جامعة كنجهاوا Qinghua في بكين وأنتجتها شركة أحدثتها الجامعة في أواخر الثمانينات اسمها شركة تسنجهاوا Solar Co. Tsinghua. وأصبحت الصين أكبر مستعمل للطاقة الشمسية لأغراض منزلية في العالم، لكن معظم الاستعمالات هي تطبيقات بارعة لتقنية منخفضة، كسخانات المياه، لا تعتمد على خلايا كهربائية ضوئية أو عمليات معقدة لتركيز الطاقة الشمسية وتحويلها إلى كهرباء.

ويزدهر الآن استخدام تسخين الماء والتدفئة بالطاقة الشمسية. فالسخانات توفر المال، وتحل محلّ الكهرباء في المدن الجديدة التي تُحمّلها ما لا تطيقها فتضطر إلى تقنين الكهرباء أو في فترات. لقد تقدمت النهضة الصناعية في الصين، والتحول إلى الإسكان الحديث والأجهزة التي ترافقه، بخطوات سريعة فاقت قدرة البلاد على توليد الطاقة الكهربائية، فصارت البلاد تعاني من تعميم وتخفيف في الإنارة، بتخطيط وبدون تخطيط. ونقلت جوانزهاو ومدن أخرى، أثناء أزمة طويلة سنة 2004م، مئات ألوف العمال للعمل في نوبات ليلية تلبية للطلب على الكهرباء خلال ساعات النهار. كما تلقت الشركات التجارية في شنغهاي تعليمات بإرسال العمال إلى بيوتهم عندما ترتفع درجات الحرارة فوق خمس وتسعين درجة فهرنهايت.

ولا تملك الصين الآن أكثر من 80 بالمئة من الطاقة التي تلزمها لتسيير سيراً مقبولاً. وتضطر بعض المواقع إلى الاستغناء عن الكهرباء يوماً أو يومين. كما يمكن تخفيف بعض الصعاب باللجوء إلى التكنولوجيا البسيطة كسخانات الطاقة الشمسية. وإن قسم التسخين بالطاقة الشمسية في مخزن كبير يعج بأنظمة من مختلف المصانع. ويتطلب سوق الصين أجهزة تستطيع مصانع الصين إنتاجها بأسعار منافسة. وقد باعت شركة تسنجهوا سولار سخانات بقيمة 370 مليون دولار في السنة مع حلول سنة 2000م، وقد وجدت نفسها تنافس خمسة وثلاثين شركة أخرى سرقت تصميماتها وصنعت مايمثلها في مصانعها.

### سحب مؤذية تملأ الأفق

يعد نقص الكهرباء كارثة وطنية طارئة. وإن زيادة استعمال مصادر الطاقة - كنتيجة مباشرة لتحول الصين نحو المدن والتصنيع - يسبب للعالم ورطة أيضاً. فالتلوث، الذي كان خطراً عالمياً قبل إصلاحات الصين الاقتصادية، تفاقم خطره بدخول مئات ملايين العمال إلى المصانع، وسيارات، وبيوت جديدة. ولا يمكن الفصل بين إسهام الصين في تعميم الكوكب وبين ما تطمح إليه مدنها، التي تعد المصدر الأسوأ للتلوث. وقد عرف العالم مع سقوط الستار الحديدي أن الاقتصاديات الشيوعية غير الفعالة تحمل أخطارها الخاصة إلى البيئة العالمية. فقد خلّفت الحكومات الحمراء جُلَّ أوروبا الشرقية في دمار قاتم. وثمة كتلة تنمو من باحثين متخصصين تبحث في سياسات الصين البيئية المرعبة تحت تأثير ماو والجيل الأول من القادة الشيوعيين. ولو تركت الصين الحمراء لأساليبها القديمة لما كانت بصمتها البيئية على العالم أفضل مما يخلفه اقتصادها الذي يتجه إلى السوق اليوم. غير أن القذارة التي تلفظها تنمية الصين تضيف أبخرة جديدة متزايدة من الهواء والماء السيئين في عالم يزداد تلوثاً.

وما زال متوسط استهلاك الفرد للطاقة في الصين أقل كثيراً من استهلاك سكان أوفر حظاً في دول أكثر تحولاً نحو الصناعة والديمقراطية. وقصة الصين، تعتمد على عدد سكانها الكبير، وسرعة نموها الاقتصادي. ففي مدن الصين أكبر شهية للفولاذ في العالم، وأسرع سوق سيارات نمواً، ونَهَم إلى الإسمنت لا يبدو له نهاية. وإن صناعة الفولاذ والسيارات من الصناعات الأكثر تكثيفاً للطاقة.

تعد صناعة الإسمنت أكثر الصناعات التي تطلق غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو، الذي يسهم على حد سواء مع البيوت الزجاجية بتسخين الكوكب، كما تمتصه بكميات كبيرة كتل المياه الكبيرة في العالم، حيث يهدد ثاني أكسيد الكربون الحياة المائية. وأصدر الصليب الأحمر الدولي، في خطوة غير عادية، تحذيراً إلى الصين من آثار التلوث الذي يسببه تحولها إلى الحياة في المدن. وجاء التحذير بعد مؤشرات مقلقة صدرت عن الحكومة الصينية. كان أولها مقال افتتاحي في صحيفة الشعب اليومية People's Daily حث الصين على إيجاد سبل لتحويل مئات ملايين المزارعين إلى أماكن سكنية مدنية «بالسرعة الممكنة». وجاء المؤشر الثاني في بحث أصدره حماة البيئة الصينية، لم يجد مدينة واحدة بين مدن الصين الكبرى التي يصل عددها إلى 340 مدينة، تلبى شروط الهواء الجيد، قياساً بكمية ثاني أكسيد الكبريت الضار في جوها المحلي. وبينت الدراسة أن حوالي مئتي مدينة منها ينطبق عليها معيار التلوث العالي الخطير.

وثمة مقياس آخر لتلوث الهواء هو مستوى المادة الدقيقة العالقة، نتيجة الدخان، والسخام، والسقط الناتج عن احتراق الوقود في الهواء. ويبلغ مستوى المواد العالقة في هواء المدن الثلاث الكبرى في الصين ثلاثة أضعاف ما تعده منظمة الصحة العالمية سليماً، وإن سبع مدن من المدن العشر التي نعدها منظمة الصحة العالمية أكثر تلوثاً في العالم موجودة في الصين.

وإن الارتفاع الأخير الحاد للتلوث مثال مزعج على المآزق الذي تسببه التنمية للصين وللعالم. فقد سميت الحداثة «صفقة مع الشيطان» منذ مجيء آلة الغزل،

لأنها تفرض مقايضة بين المزايا والتكاليف. وإن استعمال الطاقة هو أكثر الخيارات بفضاً، وهذا أقل ما يقال في ذلك. ومنذ سنوات فقط، كانت الصين تبدو كأنها قد صمّمت على معالجة التلوث الأسوأ فيها. فتحسّن الهواء من سنة 1998م إلى 2002م، اعتماداً على سياسة الحكومة، ودفاع الألوّف من جماعات البيئة الجديدة في الصين، ومن الاتجاه العام الواعي للتصنيع، الذي يصبح أكثر نظافة مع مرور الوقت ومع ازدهار الاقتصاد. (ومثال ذلك شنغهاي). لقد كان نمو الصين أسرع من حملة التنظيف الوطني، إذ ارتفع الطلب على الكهرباء في الصين بمعدل 15 بالمئة. وإن جوع الصين للطاقة، وإن تناقص عما كان من قبل، سيتطلب قدراً هائلاً من توليد الطاقة في المستقبل. فقد لبّت البلاد، حتى الآن، الحاجة إلى مزيد من الطاقة بتشغيل وحدات توليد الطاقة التي تعمل بالفحم، وتستخدم فحم الصين الطري، ذا الدرجة المنخفضة، والكبريت العالي، وهو من أقدّر أنواع الوقود. هذه الوحدات، وهي لبّ البنية التحتية للطاقة في الصين، ويُسْتَبَعَد أن تُزال أو تتغير أساليبها قريباً.

### «عليّ أن آتي بزوجي إلى الصين»

تنغمس الصين في أكبر اندفاع لبناء وحدات طاقة عرفه التاريخ. وتمتد الخطط في عمق المستقبل وتمتص في اندفاعها مقداراً هائلاً من المال. فقد استثمرت الصين سنة 2004م أربعة وعشرين بليون دولار في مولدات جديدة. وبحساب صحيفة الجارديان Guardian البريطانية تضيف الصين ما يعادل استطاعة بريطانية كهربائية كلها كل سنتين. وهذا يعني أن الصين ستحتاج قدرات صناعة الطاقة في الولايات المتحدة في أقل تقدير.

وستعطي الحكومة الصينية حصة الأسد من بناء وحدات الطاقة لشركات صينية، غير أن أهداف الصين كبيرة حتى إن الشركات الأجنبية تقطف ثمار نمو قطاع الطاقة في الصين أيضاً. فشركات البناء الصناعية [الأمريكية] الكبرى،

مثل بكتل Bechtel مشغولة منذ الآن ببناء الوحدات. والمؤسسات الدولية ناشطة أيضاً. فشركة إيه إي إس AES الأمريكية الكبرى تدير خمس وحدات طاقة في الصين، ومنها أكبر الشركات في البلاد. وتبيع شركة جنرال إلكتريك General Electric الصينيين الغنات العملاقة وسواها من المعدات والخدمات؛ ففي سنة 2003م أنجزت أعمالاً في البلاد تزيد قيمتها على بليون دولار. وحصلت شركة ميتسوبيشي Mitsubishi Heavy Industries على عقود كبيرة لتزويد الوحدات بغنات، بينما تزود شركة سيمنس Siemens الألمانية وحدات الفحم بالتكنولوجية الأساسية. فالأسعار المحددة باهظة وتمثل نوعاً من سلع غالية الثمن، وتجارة التكنولوجيا العالية التي تأمل أمريكا وأوروبا واليابان أن تقبل الصين عليها. وليس ثمة ما يحرك المسؤولين عن رؤوس الأموال العالمية أسرع من فرصة إقحام شركاتهم الكبرى في تنمية المدن الصينية. فالتحول المدني في الصين هو الموضوع الذي تلتقي عنده أحلام مساهمي جنرال إلكتريك وعمال الصين المهاجرين.

وتذهب حشود من الشركات الدولية الأصغر إلى سوق الصين، وهي شركات ليس لها ميزانيات ضخمة ولا تقف وراءها حكومات تدعمها. وتهدئ الصين قلق الأوروبيين والأمريكيين بأن تتيح لهم فرص بيع في سوق ينمو حقاً. فقد منعت حكوماتهم بناء وحدات جديدة للطاقة منذ أمد بعيد، فصار إيجاد موقع لوحدة جديدة من رابع المستحيلات في ضوء أنظمة البيئية. وعندما يقع الاختيار على موقع، تهب المجتمعات بضراوة ضد شركة الطاقة التي اقترحت بناءه. أما الشركات التي تصنع القطع التي تستعمل في وحدات الطاقة فإنها في معظم حالاتها قطع لمشروعات قديمة تمت عندما كانت اقتصادياتهم المحلية في أوج ازدهار بناء وحدات الطاقة، وتعمل الآن لصنع قطع غيار، أو لصنع تكنولوجيا مبتكرة تستطيع أن تتسجم مع نظام قديم. تتألف شركة كلايد برجمن Clyde Bergmann من شبكة من المصانع الصغيرة والمكاتب في أوروبا والولايات

المتحدة، وأخيراً في الصين، تصنع وتقدم الخدمات لبعض المعدات التي تبدو عادية في وحدة طاقة، مثل أنظمة تنظيف المرجل. فوحدات الطاقة لا تعمل دون منظمين، وإذا كان المنظمون من سوية ضعيفة، فإن المراجل تصير أقذر. ويدير مكتب الصين مهندس محلي واحد، وفي يوم معين قد يكون موعد لقاء رجال المبيعات والمهندسين القادمين من مصانع الشركة في استونية Estonia، والولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، وألمانيا.

وعندما يُحدّث ستيفن ونكل Steven Winkle زملاءه، وهو أحد التنفيذيين الزائرين من منشأة الشركة في أتلنتا ومن المولعين بالصين، فإنه لا يستطيع أن يخفي حماسه لفرصة السوق الهائلة القادمة. ويقول: «أحب هذا البلد كثيراً، إنه مكان مشير. لقد أحضرت زوجتي لكي تراه».

يستطيع ونكل ومجموعة كلايد برجمَن أن يبقوا في الصين طالما بقيت نفقاتهم منخفضة. إنهم يتفادون الفنادق الغالية ذات الطراز الغربي، ويستعملون طاوولات تطوى كأثاث لمكاتبهم. وكان مكتب الشركة في الصين منذ سنة خلت، في بناء لا تدفئة فيه. ويقول عن شركته الأم: «إن لمغامرة شركتنا مشكلة مع النمو، والصين تبني نصف الوحدات التي تعمل بالفحم في العالم». ويدرس ونكل المشهد الاقتصادي في الصين ويدرك حاجة حكومة الصين الملحة إلى التوسع في التنمية باتجاه الغرب. ويقول: «سوف يبني الصينيون مدناً كاملة جديدة حول محطات الطاقة الجديدة التي تطورها». وسوف يقيمون مراكز صناعية في قرى كانت نائمة، إن استطاعوا تأمين الطاقة اللازمة لها. ويقول ونكل: إن شركته قد نقلت بعض صناعاتها إلى الصين، حيث وجد عمالاً شاباً مهرة، تدرّبوا على التكنولوجيا الصناعية القديمة، يصعب أن يجدهم في مصانع الشركة في أوروبا والغرب.

غير أن سوق الطاقة الصيني ليس كله فرصاً. فقد قيل إن قطاع الطاقة في الصين «من أكبر مقابر الاستثمارات الأجنبية في الصين». وتشير الخدمات التجارية الأمريكية The U. S. Commercial Service، وهي الهيئة الحكومية

التي ترعى الأعمال التجارية الأمريكية في الخارج، إلى أن الصفقات الكبيرة بين المشغلين الأجانب لمحطات الطاقة وسلطات الطاقة المحلية تسير سيراً سيئاً. وتقول الهيئة محذرة الشركات - سواء أكانت مثل جنرال إلكتريك GE أم كلايد برجمن، أن عليها أن تتوقع ضغطاً لنقل تكنولوجيتها إلى الصين فتقيم بذلك تنافسها الخاص داخل البلد. وكما في صناعات أخرى يستعمل الصينيون جزرة أسواقهم الواسعة، والوعود المغرية لانتزاع تنازلات من الشركات الأجنبية تعزز بناء قوة الصين الصناعية. وهذه سياسة تستحق إعجاباً تُحسد عليه، لسجلها الطويل في النجاح، عندما ينظر إليه من زاوية الصين. أما توليد الطاقة، فإن كلفة طموح الصين قد تشد وطأته على شعبها وعلى العالم. فإذا بقي المصنعون الأجانب، رؤاد حلول صديقة للبيئة في صناعة الطاقة، خارج الصين خشية أن يسرق المنافسون الصينيون تكنولوجيتهم، فلن تتشئ الصين البنية التحتية النظيفة للطاقة التي يريد لها العالم أن تحصل عليها.

وإن كلفة الطاقة القذرة لسكان المدن الصينية هي أنهم يموتون شباباً. حيث يقدر أن أربعمئة ألف شخص يموتون كل سنة بإصابتهم بأمراض القلب والرئتين التي يُسببها تلوث الهواء. وإن الكلفة التي يتحملها الريف الصيني لتلوث المدن عالية؛ فالأمطار الحامضية تهطل فوق 30 بالمئة من الأراضي. وقد انتشرت إلى بلدان أخرى من شرق آسية. ويشير أخصائي في الطاقة في مصرف التنمية الآسيوي Asian Development Bank إلى أن الصين قد تكون مصدر 40 بالمئة من تلوث الهواء في اليابان وكورية الجنوبية. فاليابان التي عانت من مطر الصين الحامضي جيلاً كاملاً، تدفع للصين مالاً لتنظيف وحدات الطاقة الخاصة بها. وقدمت اليابان بين سنة 1997م وسنة 2002م قروضاً بلغت 3.1 بليون دولار لمشاريع بيئية في الصين.

ويرحل التلوث الصيني بأشكال أخرى أيضاً. حيث يرحل مزيج من الضباب والدخان smog الذي تنقله الرياح، ويعرف بالسحابة البنية الآسيوية، فوق

نانتونج Nantong ومدن أخرى على الشاطئ الشرقي، ليحملها، على نحو مرئي إلى الشاطئ الغربي لأمريكا، التيار النفث السريع، وتقاس الملوثات الصينية عبر البلاد. وتغير السحابة البنية أنماط المناخ العالمي. ويرى العلماء الآن أنها ربما كانت تخفف المطر على امتداد غابات واشنطن وأرجن Oregon حتى مزارع الغرب الأوسط Midwest.

وبخلاف شنغهاي وبكين، لم تزدحم شوارع نانتونج الرئيسية بالسيارات، غير أنها ما زالت تعج بالدراجات العادية والنارية. فتتراكم أمام المخازن الكبرى ألوف الدراجات من الطراز الإنكليزي الكلاسيكي القديم باللونين الرمادي والأخضر الذي رآه الأمريكيون آخر مرة في وداعاً يا سيد تشبس Goodbye Mr. Chips. وقد حلّ الزمن ورمل الطرقات محل أي بريق كان للدراجات في منظومة العجلتين أيام المساواة الكئيبة في عهد ماو. وبرغم أنها لا تشير إلى أي بعد إيديولوجي. وتكلف الدراجة المستعملة التي ما زالت بوضع جيد 10 دولارات في نانتونج، وإن قلة من أصحاب الدراجات يغامرون بترك دراجة ملونة حديثة بين حشد الدراجات العادية، فلا بد أنهم سيفقدونها.

وسوف يتوقف أهالي نانتونج عن القلق من فقدان دراجاتهم في وسط المدينة قريباً. فالمدينة تسارع إلى بناء الشوارع والطرقات الدولية التي تحتاج إليها لتلبية حاجة الحضور المتزاسد من السيارات والشاحنات. وإن نانتونج، التي تؤوي أيضاً موانئ الصين الأولى على المحيط، تدرك أنها تدور في فلك شنغهاي، التي تبعد عنها مسافة نصف يوم إلى الجنوب. وتتوي نانتونج أن تجهز نفسها لتليق بالمدينة الأكبر، ولا ترغب شنغهاي في أكثر من ذلك. فنانتونج تستطيع أن تستوعب دخان المصانع التي تحتاج موطناً آخر. وليس أمام المدن المجاورة، مثل نانتونج، إلا أن تستفيد غير أنها تريد أن تعطي نفسها شكلاً جديداً. وسيكون راكبو الدراجات والدراجات النارية أول من يعاني من ذلك.

وإذا كانت المدن الأخرى هي القدوة، فإن نانتونج سوف تمنع النقل على عجلتين في معظم شوارعها. وسيضع هذا المدينة على خط ينسجم مع سياسات

الصين الوطنية التي تشجع الناس على نحو متزايد لاقتناء السيارات، وتدعم بذلك صناعة تعتمد عليها تطلعات البلاد الصناعية الواسعة.

وتمضي تنمية الصين سريعة أكثر من قدرتها على تأسيس نظام بيئي فعال وإدارته. ولما كانت الصين عاجزة عن التحكم بملوثاتها الخاصة، فإن خير ما يستطيع العالم أن يرجوه هو التوصل إلى اتفاق دولي يضبط التلوث في كل مكان - ودون ذلك [خرط القتاد]، غير أنه ضرورة قصوى في ضوء قدرة الصين الكامنة على إفساد الكوكب.

### قوة التَّين

أثبتت السيارات أنها نعمة مختلطة في مدن الصين والعالم. فسرعان ما انبثقت صناعة السيارات في الصين بين أكثر أنواع الأعمال إثارة، فكانت مقامة على مستوى عالمي. وتستحق نظرة أدق في مكان آخر من هذا الكتاب، غير أن أي بحث في المدن الصينية لا بد أن يتطرق إلى دور السيارات.

وكان لدخول ثقافة السيارة إلى المدن الصينية بصورتها الأوسع، تبعات حيثما كانت تسير السيارات. فبائعو النفط في العالم لا يحتاجون إلى انقطاعات كبيرة في قواعد زبائنهم أو إمداداتهم ليسجلوا تغييراً هائلاً في الأسعار. وقد أدت تغيرات بسيطة في العرض والطلب فيما مضى، كارتفاع لا يتجاوز 5% في الطلب على النفط المصفى، إلى ارتفاع كبير في الأسعار في العالم تجاوز 30%. ورافق التحول إلى المدن مع الإقبال الشديد على السيارات، فالمدن تنشئ الطبقة الوسطى التي تستطيع اقتناء سيارات. فيجعل ذلك الازدهار الصين عميلاً رئيساً في أسواق نفط العالم، وقد كان شراؤه أحد العوامل الرئيسية في رفع أسعار النفط سنة 2004م إلى أعلى مستوى وصله في حينه، وهو 55 دولار للبرميل في تشرين الأول / أكتوبر 2004م. ورافقت نسبة نمو الصين التي تجاوزت 9% مع الحاجة إلى مليون برميل من النفط يومياً في الشهور التسعة الأولى من السنة.

وأنزل، في ذلك الوقت، ما يزيد على أربعة عشر ألف سيارة جديدة إلى طرقات الصين في كل يوم.

تعيش سيارات الصين ومنتجات الكهرباء المتعطشون فيها تحت السيف ذاته. فعندما تعجز وحدات الفحم الكبيرة عن تلبية حاجات الصناعات، تعمل وحدات أصغر تعمل على النفط لئلا الفراغ. وقد وجدت المصانع في الآونة الأخيرة أن خير وسيلة تقيهم التقنين هي بناء مُولدات الطاقة في مواقعهم، تعمل على الغاز أو الديزل. يتوقع أندي زي Andy Xie من مورجان ستانلي Morgan Stanley أن أسعار النفط العالمية ستخضع لطلب الصين للنفط في السنين القادمة. وإن قلة من المحللين يرون في الآثار بعيدة المدى لتحول الصين إلى السيارات أي شيء سوى ارتفاع الأسعار.

وصارت السيارات في مدن الصين مصدر التلوث الأول في البلاد. فسيارات الصين تُلوّث أكثر مما تلوث أي سيارات أخرى في أي مكان آخر من العالم، لأن قانون الصين يحدد قواعد للتلوث أضعف كثيراً مما تحدده قوانين أوروبا والولايات المتحدة. فتقول مجلة ذا فار إيسترن إيكونوميك ريفيو The Far Eastern Economic Review إن وزارة الخارجية الأمريكية لن تسمح للدبلوماسيين الذين يعانون أفراد أسرهم من الربو بالعمل في مدن الصين.

وتعد الحكومة المركزية الصينية بأنها ستفرض في المستقبل قواعد أشد في التلوث، غير أن ذلك الوعد سيعتمد على استعداد الحكومات المحلية للعب دور الشرطي، وذلك أمر بعيد الاحتمال. وحتى إن لاقت القواعد المشددة قبولاً، فإن اندفاع الصين في استعمال السيارات في العقدين القادمين سيجعلها ملوثاً مثل الولايات المتحدة. ولا بد للعالم خارج الصين أن يتعامل مع ذلك، بصرف النظر عما تفعله الصين لتنظيف عملها. فتقدّم الصين مرتبط الآن ارتباطاً وثيقاً بالسيارات، التي تعد أساساً في تنمية الصين، وهذا حق.

## جنود الطرقات

يأخذ الظهورُ المفاجئُ لثقافة السيارات في الصين الغرباء - وحتى الصينيين أنفسهم - على حين غرة. ونستطيع عدَّ السيارة في الصين وليدة التنافس الكبير بين مدن البلاد. فذلك السباق، قبل أي شيء آخر، هو اندفاع إلى بناء بنية تحتية، ليس أقلها بناء شبكة طرقات يسلكها عدد السيارات المتزايد في الصين، الذي يدخل إلى الساحة لأن الصين كررت في كل مكان، بأعداد كبيرة، وعلى مستوى أوسع، البنية التحتية للمدن الأمريكية الحديثة الكبرى، على الرغم من أنها تَمَّت بمواصفات صينية.

فمن أين أتى كل ذلك؟ تبدو الطرقات الرئيسية في الصين أفضل من الطرقات الألمانية (الأوتوبان)، وبخاصة في الليل. فالطرقات ذات الإنارة الساطعة الخارجة من شنغهاي باتجاه سوزهاو Suzhou ترتفع عالية على طول معابر مرتفعة تنطلق باتجاه السماء حاملة السيارات فوق حركة السير المتهمة التي تجري في عدة أدوار في الأسفل. ولا يقدم الطريق السريع حلاً يذكر خلال ساعات ازدحام الذروة الطويلة في المدينة، غير أنه يختصر الوقت ويقدم إطلالة مباشرة على المدينة ذات الأبنية العالية. وعند زحف ضوء النهار على الحواف المزدهمة للمدينة، تتراجع النُصب التذكارية أمام ألوف الأبراج غير المميزة المستقاة من المخططات نفسها، تلك التي تسمح ببناء هذه الأبراج بأسرع وقت. وتُبنى الأبراج أصلاً من الإسمنت وأنابيب الفولاذ، منتظمة بصفوف من الأنواع نفسها من النوافذ ومكيفات الهواء الصغيرة. أما في الأبنية الأقدم قليلاً فالنوافذ ترشح - ويقول الصينيون إنها «تبكي» - ومكيفات الهواء تقطر باستمرار، مخلفة خطوطاً غير منتظمة حمراء، وسوداء، وبينية، وخضراء على الوجه الخارجي للبناء. أما الأبنية العالية الأكثر قدماً، وهي مشاريع إسكان كبيرة تُؤوي المُسنين والمصروفين من العمل في شقق صغيرة تحوي غرفتي نوم وتوَجَّر بمبلغ يتراوح بين 12 و20 دولار في الشهر، تتضح جدرانها بكميات من المواد المعدنية تجعلها أشبه بمواقع جيولوجية.

وتختفي هذه التفاصيل في الليل، وعندما تعمل الشبكة الكهربائية بكامل طاقتها، فتُغيَّر جميع أجزاء شنغهاي، حتى القاتمة منها، إلى خليط من البريق الأبيض من نوافذ الأبنية والألوان المشعة يخطف الأبصار، تلك التي تزرعها لافتات النيون في عتمة الليل. ويجري شريط من الضوء الأزرق اللازوردي على أفق المدينة، ويقطع الظلمة مثل قلادة متوهجة، أما الطريق السريع فيكون هادئاً. ويتحوَّل ليل شنغهاي إلى شكل صور التقطت بتعريض الفيلم طويلاً long exposure لمشاهد مدنية تجعل المدن المصورة في مجلة ناشنال جيوغرافيك National Geographic تبدو كأنها تتحرك بسرعة تزيغ البصر.

وليس ثمة شك في أن السيارات والقطارات ليست الوحيدة التي تتحرك سريعة؛ فالحكومات المحلية، والمنشئون، وفرق بناء الطرق الرئيسة كلها على هذه الشاكلة. وإن الطرق الرئيسة داخل شنغهاي وخارجها، التي نُفِذت بمعدات بناء ألمانيا وإسمنت عالي الجودة أُعد لِتَحْمُل مواصلات الصين المتزايدة، ما تكاد تُنَجِّز حتى تبدأ غيرها. لقد زاد عدد السيارات بسرعة كبيرة على بعض الطرقات، حتى إن مساراتها سرعان ما تضاعفت إلى ثمانية. وربما كانت تزداد أكثر لو استطاع المهندسون ابتكار طريقة لتوسيعها أكثر، غير أن أبعاد الطرق قد مُدِدَت إلى أقصى حدودها.

إن الحل الطبيعي للطرقات شديدة الازدحام هو بناء طرق رافدة. فالصين لا تعاني من مشكلة في تصور طرق سريعة جديدة وبنائها. فقد وضعت الآن خطط لتوسيع شبكة الطرق في الصين كلها ستضيف، عملياً، معادلاً لنظام الطرق الرئيسة بين الولايات الأمريكية كلها.

ولا يسع العقل إلا أن يذهل، ولِبُرْهَة فقط، فإنَّ نظر المرءَ نظرةً مُتَّزِنة وفكراً في الأمر، وجد أن ضخامة عدد سكان الصين، والآمال التي تزكيتها الصناعة في المناطق النامية من البلاد، وأمل الحكومة الصينية وجميع شركات السيارات الكبرى في العالم أن يشتري الصينيون مئات ملايين السيارات، لايفي بحاجاتها حجم الطرق كالشبكة التي في الولايات المتحدة.

ونجد، بحسب سير الأعمال العامة في كل مكان في العالم تقريباً، أن الطرقات شديدة الازدحام ستدفع الحكومات إلى التفكير في مواقع تبني عليها طرقات تريح حركة المواصلات. والأمر ليس بهذه البساطة في الصين. فكل شبرٍ من الطرقات السريعة الجديدة في شرقي الصين هو عمل تجاري، تملكه الحكومة - سواء أكانت حكومة محلية أم مقاطعة - وتؤجره لشركة من شركات القطاع الخاص، التي تستثمره بفرض رسم على المركبات التي تسلكه. وبين الذين يوافقون على بناء طرق رئيسة والذين يديرون أكشاك دفع الرسوم مجموعة من مسؤولين، ومخططين، ومنفذين، وممولين، وشركات هندسية، وشركات بناء مختلفة، جميعهم يرجون ربحاً وقيماً. فالطرقات السريعة تشغل موقعاً يشبه النفع العام، تقدم فيه الحكومة المعنية احتكاراً لمن يقدم تلك الخدمة، وهذا يعيد المال - في الولايات المتحدة بخاصة - إلى الحكومة على شكل ضرائب. إن نقطة الاختلاف هي أن الطرقات الصينية السريعة شركات احتكارية أيضاً، مثلما كانت ستاندارد أويل Standard Oil شركة احتكارية من قبل. وإن دوافع أصحاب المصالح فيها قوية لضمان عدم وجود منافس حقيقي لطرقاتهم، حيث تؤدي شبكات طرق موازية إلى انخفاض الرسوم التي تُجبي.

غير أن المنافسة آتية في كل حال. ولا تكون المنافسة مباشرة، وإنما تأتي من طرق تُبنى في مناطق أخرى تطمح إلى بنية تحتية حديثة ومنافسة، وأرباح خاصة لها. وكانت مقاطعة زيجيانج Zhejiang Province رائدة هذا النظام، يدفعها اليأس الذي دفع مواطني المقاطعة إلى شق طريقهم بنجاح نحو القطاع الخاص. ولما كانت الحكومة المركزية لا تقدم المال اللازم لبناء الطرق التي تحتاج إليها تجارتهم الوليدة، فقد طرحت حكومة المقاطعة فكرة بناء طرقات بمال يجمع من سوق الأوراق المالية في هونج كونج، ويكون لكل طريق شركته الخاصة، وتسدد بطريقتها الخاصة. وتعمل الشركات المسؤولة عن الطرق كشركات خاصة يكون للمقاطعة حصة كبيرة فيها.

ونجحت الخطة، وأصبحت طرقات زيجيانج أمراً مهماً لمستثمري العالم، وليس للمستثمرين الصينيين فحسب، وإنما للمؤسسات الكبيرة وصناديق الاستثمار الأغنى في العالم. وأثبت برنامج بناء الطرق في زيجيانج نجاحاً مع مرور السنين، حتى إن الطرق الرئيسية في المقاطعة لم تكلف مواطنيها شيئاً من المال العام. بل كسبت زيجيانج 30 بليون دولار من طرقاتها، وهذا مبلغ يكفي لتمويل برامج اجتماعية ضرورية أخرى، ك معالجة المياه، والمدارس، وكلاهما فوق المعدل الصيني الطبيعي. وهذه هي المقاطعة التي لم تحصل على مال من الحكومة.

إن النموذج الذي استعمل أول مرة في الطرق الرئيسية يستعمل الآن في جميع أنواع الخدمات العامة. و تتوقع الحكومة المركزية أن تبادر مدن الصين الكبرى إلى بناء منشآت حديثة لمعالجة المياه، وتفوضها ببناء وحدات تزود سكانها بمياه الشفّة. وثمة خطط لبناء مئات من وحدات معالجة المياه الجديدة. إذ إن 15 % فقط من الصينيين يحصلون على ماء الشفّة السليم يصل إليهم عبر الصنابير. وتلجأ بعض الحكومات لتمويل هذه المشاريع إلى خصخصة إمدادات الماء أيضاً، وليس واضحاً بعد إن كانت هذه المشاريع رابحة مثل الطرق السريعة أم لا. ويفترض أن تحمل هذه الخطط إلى الصين أسواقاً فعّالة للخدمات، حيث يدفع الناس قيمة الخدمات التي يحصلون عليها. وقد يؤدي هذا إلى مجتمع أكثر حرصاً على صيانة هذه الخدمات والحفاظ عليها. بينما نجد الولايات المتحدة، على خلاف ذلك، حيث معظم استخدام الطرق الرئيسية مجاني، ويُدعم الماء بكرم، ولعل الأمريكيين يميلون إلى الإفراط في الأمرين معاً.

ويغذي الطرح الصيني التوسع السريع في البنية التحتية. وقد لا تستطيع الدول التي تعتمد على أموال الضرائب وموافقة العامة على بناء طرقاتها مجازة ما يسارع الصينيون لبنائه. وتأتي الطرق الرئيسية الأفضل في الولايات المتحدة لقاء ضرائب أعلى. وقد أفادت آخر تقارير وزارة النقل الأمريكية إلى الكونغرس، أن المال المرصود الآن للشبكة التي تربط الولايات ببعضها بعضاً لا يلبي الحاجة إلى إبقاء الطرق الحالية في أفضل حال، ولا يتطرق إلى التوسع فيها. ويواجه

السياسيون الذين يؤيدون رفع الضرائب على الوقود أو الدخل لتغطية نفقات البنية التحتية الضرورية، معارضة المواطنين الشديدة.

وقد أعلن الصينيون مؤخراً أنهم يفتحون مشروعات قطاراتهم لخطط استثمار خاص. ويجربون كل ما يمكن أن ينسجم ولو من بعيد مع مشروع هذه الخطة. فعندما تبنى الحدائق العامة، تُوجر الأرض المحيطة بالحديقة لتغطية نفقاتها. وتُبنى مراكز المؤتمرات البلدية لتحقيق ربح، غير أن هذا ما ثبت استحالة تقريباً في مكان آخر من العالم، وقد ينجح في الصين (بخاصة إذا حولت أجزاء من المراكز إلى مراكز تسوق كبرى!).

وقد تكون البنية التحتية المادية، كالطرق الرئيسية، ومنظومة الماء، وسواها من الخدمات المدنية أقل أهمية في عصر تتحرك المعلومات فيه بالبايت والجزء الرقمي، كما تتنافس دول العالم بخبرات مقارنة في مشروعات التكنولوجيا العالية. وقد تكون البنية التحتية لبلد ما هي التي تحدد قوته التنافسية سلباً أو إيجاباً. فإذا كان للأصول غير الأساسية في الاقتصاد أن تكرر بسهولة في الخارج - إما ببنائها أو بنقلها - فإن الأشياء التي لا يمكن نقلها هي التي تحدد الفوارق بين الدول. فالسلع العامة القديمة كالطرق، والماء، والطاقة، والخدمات البلدية ستكون مهمة مثل أهمية أفضل المهندسين، والاتصالات، ومخزن براءات اختراع.

وتُشكّل الخصخصة المُلحّة للطرق وسواها من منشآت البنية التحتية مفتاحاً آخر لفهم سبب النمو السريع للصين. فلقد فتحت الحكومة قيمة الأرض التي تملكها تحت أقدام الجميع. وإن كل كتلة بناء أنشئت في المدن الصينية تشكل مظهراً في هذا الجزء مهماً لأن الأرض التي تقوم عليها تكتسب سعراً من الحكومة - أو من أحد مسؤوليها ذي الصلة.

وتدّين الصين ومُدُنُها بتقدمها وتلوّثها للثروة التي تُقتطع من المورد الأكبر من موارد الدولة، وهو الأرض ذاتها التي ضحّى الشيوعيون بمليون نفس «لتحريرها» من الملكية الخاصة.

